فى ظلال القرآن

الجزء العشرون

بقلم

سيد قطب

الطبعة الأولى

طبع بدار إحياء الكتب العربية
عيسى البابى الحلبى وشركاه

إهـــــداء ٢٠٠٦

المرحوم الدكتور/ علي حسين كرار

القاهرة

فى ظلال القرآن

الجزء العشرون

بقلم

سيد قطب

الطبعة الأولى

طبع بدار إحياء الكتب العربية
عيسى البابى الحلبى وشركاه



من سورة النمل والقصص والعنكبوت

« قُلِ : ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَى، آللَّهُ خَيْرٌ أَمْ مَا يُشْرِكُونَ ؟ * أَمْ مَنْ خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ ، وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً ، فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ؟ أَإِلٰهٌ مَعَ ٱللَّهِ ؟ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمْ مَنْ جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ، وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا ، وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ ، وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً ؟ أَإِلٰهٌ مَعَ ٱللَّهِ ؟ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * أَمْ مَنْ يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ، وَيَكْشِفُ ٱلسُّوءَ ، وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ ٱلْأَرْضِ ؟ أَإِلٰهٌ مَعَ ٱللَّهِ ؟ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ * أَمْ مَنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ، وَمَنْ يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ؟ أَإِلٰهٌ مَعَ ٱللَّهِ ؟ تَعَالَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمْ مَنْ يَبْدَأُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ ؟ أَإِلٰهٌ مَعَ ٱللَّهِ ؟ قُلْ : هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

« قُلْ : لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ، وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ * بَلِ ٱدَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ ، بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا ، بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا : أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ ؟ * لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ ، إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ * قُلْ: سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ * وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ * وَيَقُولُونَ : مَتَى هَذَا ٱلْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ؟ * قُلْ : عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ ٱلَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ .

« إِنَّ هَذَا ٱلْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ * إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ *

فتوكَّلْ على اللهِ إنَّكَ على الحقِّ المُبينِ * إنَّكَ لا تُسْمِعُ المَوْتَى ولا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أنتَ بِهادِي العُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ ، إنْ تُسْمِعُ إلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ .

« وَإذَا وَقَعَ القَوْلُ عَلَيْهِمْ أخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ * وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰ إذَا جاءوا قَالَ : أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً ؟ أمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ؟ * وَوَقَعَ القَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ .

« أَلَمْ يَرَوْا أنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً ؟ إنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

« وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ - إلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ - وَكُلٌّ أتَوْهُ دَاخِرِينَ * وَتَرَى الجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ، صُنْعَ اللهِ الَّذِي أتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ، إنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ * مَنْ جَاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ * وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ . هَلْ تُجْزَوْنَ إلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ؟

« إنَّمَا أُمِرْتُ أنْ أعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ البَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا ، وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ، وَأُمِرْتُ أنْ أكُونَ مِنَ المُسْلِمِينَ * وَأنْ أتْلُوَ القُرْآنَ ؛ فَمَنِ اهْتَدَى فَإنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ : إنَّمَا أنَا مِنَ المُنْذِرِينَ * وَقُلِ : الحَمْدُ لِلَّهِ ، سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » . .

هذا الدرس ختام سورة النمـل ، بعد استعراض حلقات من قصص موسى وداود وسليمان وصالح ولوط ـ عليهم السلام ـ وهذا الختـام متصل بمطلع السورة فى الموضوع . والقصص بينهما متناسق مع المطلع والختام . كل قصة تؤدى جانبا من جوانب الغرض الذى يعالجه سياق السورة كلها .

وهو يبدأ بالحمد لله ، وبالسلام على من اصطفاهم من عباده ، من الأنبياء والرسل ، ومنهم الذين ورد قصصهم من قبل . يفتتح بذلك الحمد وهذا السلام جولة عن العقيدة . جولة فى مشاهد الـكون وأغوار النفس ، وأطواء الغيب ؛ وفى أشراط الساعة ومشاهد القيـامة ، وأهوال الحشر ، التى يفزع لها من فى السماوات ومن فى الأرض إلا من شاء الله .

* * *

فى هذه الجولة يقفهم أمام مشاهدات فى صفحة الـكون وفى أطواء النفس ، لا يملـكون إنـكار وجودها ، ولا يملـكون تعليلها بغير التسليم بوجود الخالق الواحد المدبر القدير .

ويتوالى عرض هذه المشاهدات فى إيقاعات مؤثرة ، تأخذ عليهم أقطار الحجة ، وأقطار المشاعر ؛ وهو يسألهم أسئلة متلاحقة : من خلق السماوات والأرض ؟ من أنزل من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ؟ من جعل الأرض قرارا ، وجعل خلالها أنهارا ، وجعل لها رواسى ، وجعل بين البحرين حاجزا ؟ من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ؟ من يجعلـكم خلفاء الأرض ؟ من يهديكم فى ظلمـات البر والبحر ؟ من يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمتـه ؟ من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ من يرزقـكم من السماء والأرض ؟ وفى كل مرة يقرعهم : أ إله مع الله ؟ وهم لا يملـكون أن يدعوا هذه الدعوى . لا يملـكون أن يقولوا : إن إلهاً مع الله يفعل من هذا كله شيئا ؛ وهم مع هذا يعبدون أربابا من دون الله !

وعقب هذه الإيقاعات القوية التى تقتحم القلوب ، لأنها إيقاعات كونية تملأ صفحة الوجود من حولهم ، أو إيقاعات وجدانيـة يحسونها فى قلوبهم . . يستعرض تـكذيبهم بالآخرة ، وتخبطهم فى أمرها ، ويعقب عليه بتوجيه قلوبهم إلى مصارع الغابرين الذين كانوا مثلهم يكذبون ويتخبطون .

ويخلص من هذا إلى عرض مشهد الحشر وما فيه من هول ومن فزع . ويرجع

بهم فى ومضة خاطفة إلى الأرض ، ثم يردهم إلى مشهد الحشر . وكأنما يهز قلوبهم هزا ويرجها رجا . . .

وفى نهاية الجولة يجىء الختام أشبه بالإيقاع الأخير عميقا رهيبا . . ينفض رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يده من أمر المشركين المستهزئين بالوعيد ، المكذبين بالآخرة ، وقد وجه قلوبهم إلى مشاهد الكون وأهوال الحشر ، وعواقب الطائعين والعصاة — ويتركهم إلى مصيرهم الذى يختارون ؛ ويحدد منهجه ووسيلته ولمن شاء أن يختار :

« إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها وله كل شىء ، وأمرت أن أكون من المسلمين . وأن أتلو القرآن . فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فقل : إنما أنا من المنذرين » . . .

ثم يختم الجولة كما بدأها بحمد الله الذى يستأهل الحمد وحده ؛ ويكلهم إلى الله يريهم آياته ؛ ويطلع على أعمالهم ما ظهر منها وما بطن :

« وقل : الحمد لله . سيريكم آياته فتعرفونها . وما ربك بغافل عما تعملون » . .

وتختم السورة بهذا الإيقاع المؤثر العميق .

* * *

« قل : الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى . آلله خير أم ما يشركون ؟ » . .

يأمر الله رسوله — صلى الله عليه وسلم — أن يقول الكلمة التى تليق أن يفتتح بها المؤمن حديثه ودعوته وجداله ، وأن يختمه كذلك : « قل : الحمد لله » . . المستحق للحمد من عباده على آلائه ، وفى أولها هدايتهم إليه ، وإلى طريقه الذى يختاره ، ومنهجه الذى يرضاه . « وسلام على عباده الذين اصطفى » لحمل رسالته وتبليغ دعوته ، وبيان منهجه .

وبعد هذا الافتتاح يأخذ فى توقيعاته على القلوب المنكرة لآيات الله ، مبتدئا بسؤال لا يحتمل إلا إجابة واحدة ، يستنكر به أن يشركوا بالله هذه الآلهة المدعاة :

« آلله خير أم ما يشركون ؟ » . .

وما يشركون أصنام وأوثان ، أو ملائكة وجن ، أو خلق من خلق الله على أية حال ، لا يرتقى أن يكون شبيها بالله — سبحانه — فضلا على أن يكون خيرا منه . ولا يخطر على قلب عاقل أن

يعقد مقارنة أو موازنة . ومن ثم يبدو هذا السؤال بهذه الصيغة وكأنه تهكم محض ، وتوبيخ صرف ، لأنه غير قابل أن يوجه على سبيل الجد ، أو أن يطلب عنه جواب !

ومن ثم يعدل عنه إلى سؤال آخر ، مستمد من واقع هذا الكون حولهم ،ومن مشاهده التي يرونها بأعينهم :

« أم من خلق السماوات والأرض ، وأنزل لكم من السماء ماء ، فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ؟ أإله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون » ..

والسماوات والأرض حقيقة قائمة لا يملك أحد إنكار وجودها ، ولا يملك كذلك أن يدعى أن هذه الآلهة المدعاة خلقتها .. وهى أصنام أو أوثان ، أو ملائكة وشياطين ، أو شمس أو قمر .. فالبداهة تصرخ فى وجه هذا الادعاء . ولم يكن أحد من المشركين يزعم أن هذا الكون قائم بنفسه ، مخلوق بذاته ، كما وجد من يدعى مثل هذا الادعاء المتهافت فى القرون الأخيرة ! فكان مجرد التذكير بوجود السماوات والأرض ، والتوجيه إلى التفكير فيمن خلقها ، كفيلا بإلزام الحجة ، ودحض الشرك ، وإفحام المشركين . وما يزال هذا السؤال قائما فإن خلق السماوات والأرض على هذا النحو الذى يبدو فيه القصد ، ويتضح فيه التدبير ، ويظهر فيه التناسق المطلق الذى لا يمكن أن يكون فلتة ولا مصادفة ، ملجىء بذاته إلى الإقرار بوجود الخالق الواحد ، الذى تتضح وحدانيته بآثاره . ناطق بأن هناك تصميما واحدا متناسقا لهذا الكون لا تعدد فى طبيعته ولا تعدد فى اتجاهه . فلا بد أنه صادر عن إرادة واحدة غير متعددة . إرادة قاصدة لا يفوتها القصد فى الكبير ولا فى الصغير .

« أم من خلق السماوات والأرض » .. « وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ؟ » ..

والماء النازل من السماء حقيقة كذلك مشهودة يستحيل إنكارها ، ويتعذر تعليلها بغير الإقرار بخالق مدبر ، فطر السماوات والأرض وفق هذا الناموس الذى يسمح بنزول المطر ، بهذا القدر ، الذى توجد به الحياة ، على النحو الذى وجدت به ، فما يمكن أن يقع هذا كله مصادفة ، وأن تتوافق المصادفات بهذا الترتيب الدقيق ، وبهذا التقدير المضبوط . المنظور فيه إلى حاجة الأحياء وبخاصة الإنسان . هذا التخصيص الذى يعبر عنه القرآن الكريم بقوله : «وأنزل لكم ... » والقرآن يوجه القلوب والأبصار إلى الآثار المحيية لهذا الماء المنزل للناس

وفق حاجة حياتهم ، منظورا فيه إلى وجودهم وحاجاتهم وضروراتهم . يوجه القلوب والأبصار إلى تلك الآثار الحية القائمة حيالهم وهم عنها غافلون :

« فأنبتنا به حدائق ذات بهجة » . .

حـدائق بهيجة ناضرة حية جميلة مفرحة . . ومنظر الحـدائق يبعث فى القلب البهجة والنشاط والحيوية. وتأمل هذه البهجة والجمال الناضر الحى الذى يبعثها كفيل بإحياء القلوب . وتدبر آثار الإبداع فى الحدائق كفيل بتمجيد الصانع الذى أبدع هذا الجمال العجيب . وإن تلوين زهرة واحدة وتنسيقها ليعجز عنه أعظم رجال الفنون من البشر . وإن تموج الألوان وتداخل الخطوط وتنظيم الوريقات فى الزهرة الواحـدة ليبدو معجزة تتقاصر دونها عبقرية الفن فى القديم والحديث . فضلا على معجزة الحياة النامية فى الشجر ـ وهى السر الأكبر الذى يعجز عن فهمه البشر ـ : « ما كان لـكم أن تنبتوا شجرها » وسر الحياة كان وما يزال مستغلقا على الناس . سواء أكان فى النبات أم فى الحيوان أم فى الإنسان . فما يملك أحـد حتى اللحظة أن يقول : كيف جاءت هـذه الحياة ، ولا كيف تلبست بتلك الخلائق من نبات أو حيوان أو إنسان . ولا بد من الرجوع فيها إلى مصدر وراء هذا الـكون المنظور .

وعند ما يصل فى هـذه الوقفة أمام الحياة النامية فى الحدائق البهيجة إلى إثارة التطلع والانتباه وتحريك التأمل والتفـكير ، يهجم عليهم بسؤال :

« أإله مع الله ؟ » . .

ولا مجال لمثل هـذا الادعاء ؛ ولا مفر من الإقرار والإذعان . . وعندئذ يبدو موقف القوم عجيبا ، وهم يسوون آلهتهم المدعاة بالله ، فيعبدونهـا عبادة الله : « بل هم قوم يعدلون » . .

ويعدلون . إما أن يكون معناها يسوون . أى يسوون آلهتهم بالله فى العبادة . وإما أن يكون معناها : يحيدون . أى يحيدون عن الحق الواضح المبين . بإشراك أحـد مع الله فى العبـادة ؛ وهو وحـده الخالق الذى لم يشاركه أحـد فى الخلق . وكلا الأمرين تصرف عجيب لا يليق !

ثم ينتقل بهم إلى حقيقة كونية أخرى ، يواجههم بها كما واجههم بحقيقة الخلق الأولى :

« أم من جعل الأرض قرارا ، وجعل خلالها أنهارا ، وجعل لهـا رواسى وجعل بين البحرين حاجزا ؟ » ..

لقد كانت الحقيقة الكونية الأولى هى حقيقة خلق السماوات والأرض . أما هذه فهى الهيئة التى خلق عليها الأرض . لقد جعلها قرارا للحياة ، مستقرة مطمئنة صالحة يمكن أن توجد فيها الحياة وتنمو وتتكاثر . ولو تغير وضعها من الشمس والقمر ؛ أو تغير شكلها ، أو تغير حجمها ، أو تغيرت عناصرها والعناصر المحيطة فى الجو بها ، أو تغيرت سرعة دورتها حول نفسها ، أو سرعة دورتها حول الشمس ، أو سرعة دورة القمر حولها ... إلى آخر هذه الملابسات الكثيرة التى لا يمكن أن تتم مصادفة ، وأن تتناسق كلها هذا التناسق .. لو تغير شىء من هذا كله أدنى تغيير ، لما كانت الأرض قرارا صالحا للحياة .

وربما أن المخاطبين إذ ذاك لم يكونوا يدركون من قوله تعـالى : « أم من جعل الأرض قرارا؟ » كل هذه العجائب .ولكنهم كانوا يرون الأرض مستقرا صالحا للحياة على وجه الإجمال؛ ولا يملكون أن يدعوا أن أحدا من آلهتهم كان له شرك فى خلق الأرض على هذا المنوال . وهذا يكفى . ثم يبقى النص بعد ذلك مفتوحا للأجيال ؛ وكلما اتسع علم البشر أدركوا شيئا من معناه الضخم المتجدد على توالى الأجيال . وتلك معجزة القرآن فى خطابه لجميع العقول ، على توالى الأزمان !

« أم من جعل الأرض قرارا . وجعل خلالها أنهارا ؟ » ..

والأنهار فى الأرض هى شرايين الحياة ، وهى تنتشر فيها إلى الشرق وإلى الغرب ، وإلى الشمال وإلى الجنوب ، تحمل معها الخصب والحياة والنماء . والأنهار تتكون من تجمع مياه الأمطار وجريانها وفق طبيعة الأرض . والله الذى خلق هذا الكون هو الذى قدر فى تصميمه إمكان تكون السحب ، ونزول المطر ، وجريان الأنهار . وما يملك أحد أن يقول : إن أحدا سوى الخالق المدبر قد شارك فى خلق هذا الكون على هذا النحو ؟ وجريان الأنهار حقيقة واقعة يراها المشركون . فمن ذا أوجد هذه الحقيقة ؟ « أإله مع الله ؟ »

« وجعل لها رواسى » . .

والرواسى : الجبال . وهى ثابتة مستقرة على الأرض . وهى فى الغالب منابع الأنهار ، حيث تجرى منها ميـاه الأمطار إلى الوديان ؛ وتشق مجراها بسبب تدفقها من قمم الجبال العالية بعنف وقوة .

والرواسى الثابتة تقابل الأنهار الجارية فى المشهد الكونى الذى يعرضه القرآن هنا والتقابل التصويرى ملحوظ فى التعبير القرآنى . وهذا واحد منه . لذلك يذكر الرواسى بعد الأنهار .

« وجعل بين البحرين حاجزا » ..

البحر الملح الأجاج ، والنهر العذب الفرات . سماهما بحرين على سبيل التغليب من حيث مادتهما المشتركة وهى الماء . والحاجز فى الغالب هو الحاجز الطبيعى ، الذى يجعل البحر لا يفيض على النهر فيفسده . إذ أن مستوى سطح النهر أعلى من مستوى سطح البحر . وهذا ما يحجز بينهما مع أن الأنهار تصب فى البحار ، ولكن مجرى النهر يبقى مستقلا لا يطغى عليه البحر . وحتى حين ينخفض سطح النهر عن سطح البحر لسبب من الأسباب فإن هذا الحاجز يظل قائما من طبيعة كثافة ماء البحر وماء النهر . إذ يخف ماء النهر ويثقل ماء البحر فيظل مجرى كل منهما مميزا لا يمتزجان ولا يبغى أحدهما على الآخر . وهذا من سنن الله فى خلق هذا الكون ، وتصميمه على هذ النحو الدقيق .

فمن فعل هذا كله ؟ من ؟ « أإله مع الله ؟ » ..

وما يملك أحد أن يدعى هذه الدعوى . ووحدة التصميم أمامه تجبره على الاعتراف بوحدة الخالق .. « بل أكثرهم لا يعلمون » ..

ويذكر العلم هنا لأن هذه الحقيقة الكونية تحتاج إلى العلم لتملى الصنعة فيها والتنسيق ، وتدبر السنة فيها والناموس . ولأن التركيز فى السورة كلها على العلم (كما ذكرنا فى تلخيص السورة فى الجزء الماضى) .

ثم ينتقل بهم من مشاهد الكون إلى خاصة أنفسهم :

« أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الأرض ؟ أإله مع الله ؟ قليلا ما تذكرون » ..

فيلمس وجدانهم وهو يذكرهم بخوالج أنفسهم ، وواقع أحوالهم .

فالمضطر فى لحظات الكربة والضيق لا يجد له ملجأ إلا الله يدعوه ليكشف عنه الضر والسوء ذلك حين تضيق الحلقة ، وتشتد الخنقة ، وتتخاذل القوى ، وتتهاوى الأسناد ؟ وينظر الإنسان حواليه فيجد نفسه مجردا من وسائل النصرة وأسباب الخلاص . لا قوته ، ولا قوة فى الأرض تنجده . وكل ما كان يعده لساعة الشدة قد زاغ عنه أو تخلى ؟ وكل من كان يرجوه للكربة

قد تنكر له أو تولى .. فى هذه اللحظة تستيقظ الفطرة فتلجأ إلى القوة الوحيدة التى تملك الغوث والنجدة ، ويتجه الإنسان إلى الله ولو كان قد نسيه من قبل فى ساعات الرخاء . فهو الذى يجيب المضطر إذا دعاه . هو وحده دون سواه . يجيبه ويكشف عنه السوء ، ويرده إلى الأمن والسلامة ، وينجيه من الضيقة الآخذة بالخناق .

والناس يغفلون عن هذه الحقيقة فى ساعات الرخاء ، وفترات الغفلة . يغفلون عنها فيلتمسون القوة والنصرة والحماية فى قوة من قوى الأرض الهزيلة . فأما حين تلجئهم الشدة، ويضطرهم الكرب ، فتزول عن فطرتهم غشاوة الغفلة ، ويرجعون إلى ربهم منيبين مهما يكونوا من قبل غافلين أو مكابرين .

والقرآن يرد المكابرين الجاحدين إلى هذه الحقيقة الكامنة فى فطرتهم ، ويسوقها لهم فى مجال الحقائق الكونية التى ساقها من قبل . حقائق خلق السماوات والأرض ، وإنزال الماء من السماء ، وإنبات الحدائق البهيجة ، وجعل الأرض قرارا ، والجبال رواسى ، وإجراء الأنهار ، والحاجز بين البحرين . فالتجاء المضطر إلى الله ، واستجابة الله له دون سواه حقيقة كهذه الحقائق . هذه فى الآفاق وتلك فى الأنفس سواء بسواء .

ويمضى فى لمس مشاعرهم بما هو واقع فى حياتهم : « ويجعلكم خلفاء الأرض » ..

فمن يجعل الناس خلفاء الأرض ؟ أليس هو الله الذى استخلف جنسهم فى الأرض أولا . ثم جعلهم قرنا بعد قرن ، وجيلا بعد جيل ، يخلف بعضهم بعضاً فى مملكة الأرض التى جعلهم فيها خلفاء ؟

أليس هو الله الذى فطرهم وفق النواميس التى تسمح بوجودهم فى هذه الأرض ، وزودهم بالطاقات والاستعدادات التى تقدرهم على الخلافة فيها ، وتعدهم لهذه المهمة الضخمة الكبرى . النواميس التى تجعل الأرض لهم قرارا ؟ والتى تنظم الكون كله متناسقا بعضه مع بعض بحيث تهيأ للأرض تلك الموافقات والظروف المساعدة للحياة . ولو اختل شرط واحد من الشروط الكثيرة المتوافرة فى تصميم هذا الوجود وتنسيقه لأصبح وجود الحياة على هذه الأرض مستحيلا[1] .

وأخيراً أليس هو الله الذى قدر الموت والحياة ، واستخلف جيلا بعد جيل ؟ ولو عاش الأولون

(١) يراجع تفسير قوله تعالى : «وخلق كل شىء فقدره تقديرا » فى سورة الفرقان . جزء ١٩ ، ص ١٢

لضاقت الأرض بهم وبالآخرين ؛ ولأبطأ سير الحياة والحضارة والتفكير ، لأن تجدد الأجيال هو الذى يسمح بتجدد الأفكار والتجارب والمحاولات ، وتجدد أنماط الحياة ، بغير تصادم بين القدامى والمحدثين إلا فى عالم الفكر والشعور . فأما لو كان القدامى أحياء لتضخم التصادم والاعتراض ! ولتعطل موكب الحياة المندفع إلى الأمام !

إنها كلها حقائق فى الأنفس كتلك الحقائق فى الآفاق . فمن الذى حقق وجودها وأنشأها ؟ من ؟

« أإله مع الله ؟ » . .

إنهم لينسون ويغفلون . وهذه الحقائق كامنة فى أعماق النفوس ، مشهودة فى واقع الحياة :

« قليلا ماتذكرون » !

ولو تذكر الإنسان وتدبر مثل هذه الحقائق لبقى موصولا بالله صلة الفطرة الأولى . ولما غفل عن ربه ، ولا أشرك به أحدا .

ثم يمضى السياق إلى بعض الحقائق الأخرى الممثلة فى حياة الناس ونشاطهم على هذا الكوكب ، ومشاهداتهم التى لا تنكر :

« أم من يهديكم فى ظلمات البر والبحر ، ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ؟ أإله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون ! » ...

والناس — ومنهم المخاطبون أول مرة بهذا القرآن — يسلكون فجاج البر والبحر فى أسفارهم ؛ ويسبرون أسرار البر والبحر فى تجاربهم .. ويهتدون .. فمن يهديهم ؟ من أودع كيانهم تلك القوى المدركة ؟ من أقدرهم على الاهتداء بالنجوم وبالآلات وبالمعالم ؟ من وصل فطرتهم بفطرة هذا الكون ، وطاقاتهم بأسراره ؟ من جعل لآذانهم تلك القدرة على التقاط الأصوات ، ولعيونهم تلك القدرة على التقاط الأضواء ؟ ولحواسهم تلك القدرة على التقاط المحسوسات ؟ ثم جعل لهم تلك الطاقة المدركة المسماة بالعقل أو القلب للانتفاع بكل المدركات ، وتجميع تجارب الحواس والإلهامات ؟

من ؟ أإله مع الله ؟

« ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ؟ » ..

والرياح ، مهما قيل فى أسبابها الفلكية والجغرافية ، تابعة للتصميم الكونى الأول ،

الذى يسمح بجريانها على النحو الذى تجرى به ، حاملة السحب من مكان إلى مكان ، مبشرة بالمطر الذى تتجلى فيه رحمة الله ، وهو سبب الحياة .

فمن الذى فطر هذا الكون على خلقته ، فأرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ؟ من ؟

« أإله مع الله ؟ » .. « تعالى الله عما يشركون ! » .

ويختم هــذه الإيقاعات بسؤال عن خلقتهم وإعادتهم ورزقهم من السماء والأرض ، مع التحدى والإفحام :

« أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ، ومن يرزقكم من السماء والأرض ؟ أإله مع الله ؟ قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » ..

وبدء الخلق حقيقة واقعــة لا يملك أحد إنكارها ، ولا يمكن أحدا تعليلها بغير وجود الله ووحدانيته . وجوده لأن وجود هذا الكون ملجىء للإقرار بوجوده ؛ وقد باءت بالفشل المنطقى كل محاولة لتعليل وجود هذا الكون على هذا النحو الذى يظهر فيه التدبير والقصد بغير الإقرار بوجود الله . ووحدانيته لأن آثار صنعته ملجئة للإقرار بوحدانيته ؛ فعليها آثار التقدير الواحد ، والتدبير الواحد ؛ وفيها من التناسق المطلق ما يجزم بالإرادة الواحدة المنشئة للناموس الواحد .

فأما إعادة الخلق فهذه التى كانوا يجادلون فيها ويمارون . ولكن الإقرار ببدء الخلق على هذا النحو الذى يظهر فيه التقدير والتدبير والقصد والتنسيق ملجىء كذلك للتصديق بإعادة الخلق ، ليلقوا جزاءهم الحق على أعمالهم فى دار الفناء ، التى لايتم فيها الجزاء الحق على الأعمال وإن كان يتم فيها أحيانا بعض الجزاء . فهذا التنسيق الواضح فى خلقة الكون يقتضى أن يتم تمامه بالتنسيق المطلق بين العمل والجزاء . وهذا لا يتم فى الحياة الدنيا . فلا بد إذن من التصديق بحياة أخرى يتحقق فيها التناسق والكمال . . أما لماذا لم يتم فى هذه الأرض ذلك التنسيق المطلق بين العمل والجزاء ؟ فذلك متروك لحكمة صاحب الخلق والتدبير . وهو سؤال لا يجوز توجيهه لأن الصانع أعلم بصنعته . وسر الصنعة عند الصانع . وهو غيب من غيبه الذى لم يطلع عليه أحدا !

ومن هذا التلازم بين الإقرار بمبدىء الحياة والإقرار بمعيدها يسألهم ذلك السؤال : « أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ » . . « أإله مع الله ؟ » ..

والرزق من السماء والأرض متصل بالبدء والإعادة سواء . ورزق العباد من الأرض يتمثل فى صور شتى أظهرها النبات والحيوان ، والماء والهواء ، للطعام والشراب والاستنشاق ؛ ومنها كنوز الأرض من معادن وفلزات ؛ وكنوز البحر من طعام وزينة . ومنها القوى العجيبة من مغناطيسية وكهرباء ، وقوى أخرى لا يعلمها بعد إلا الله ؛ ويكشف عن شىء منها لعباده آناً بعد آن .

وأما رزقهم من السماء فلهم منه فى الحياة الدنيا : الضوء والحرارة والمطر وسائر ما يسره الله لهم من القوى والطاقات . ولهم منه فى الآخرة عطاء الله الذى يقسمه لهم — وهو من السماء بمدلولها المعنوى ، الذى يتردد كثيرا فى القرآن والسنة ؛ وهو معنى الارتفاع والاستعلاء .

وقد ذكر رزقهم من السماء والأرض بعد ذكر البدء والإعادة ، لأن رزق السماء والأرض له علاقة بالبدء والإعادة . فعلاقة رزق الأرض بالبدء معروفة فهو الذى يعيش عليه العباد . وعلاقته بالإعادة أن الناس يجزون فى الآخرة على عملهم وتصرفهم فى هذا الرزق الذى أعطوه فى الدنيا .. وعلاقة رزق السماء بالبدء واضحة . فهو فى الدنيا للحياة ، وهو فى الآخرة للجزاء .. وهكذا تبدو دقة التناسق فى السياق القرآنى العجيب .

والبدء والإعادة حقيقة . والرزق من السماء والأرض حقيقة . ولكنهم يغفلون عن هذه الحقائق ، فيردهم القرآن إليها فى تحد وإفحام :

« أإله مع الله ؟ » . . « قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » . .

وإنهم ليعجزون عن البرهان ، كما يعجز عنه من يحاوله حتى الآن . وهذه طريقة القرآن فى الجدل عن العقيدة . يستخدم مشاهد الكون وحقائق النفس ؛ فيجعل الكون كله إطارا للمنطق الذى يأخذ به القلوب ؛ ويوقظ به الفطرة ويجلوها لتحكم منطقها الواضح الواصل البسيط ؛ ويستجيش به المشاعر والوجدانات بما هو مركوز فيها من الحقائق التى تغشيها الغفلة والنسيان ، ويحجبها الجحود والكفران . . ويصل بهذا المنطق إلى تقرير الحقائق العميقة الثابتة فى تصميم الكون وأغوار النفس ؛ والتى لا تقبل المراء الذى يقود إليه المنطق الذهنى البارد ، الذى انتقلت عدواه إلينا من المنطق الإغريقى ، وفشا فيما يسمى علم التوحيد ، أو علم الكلام !

* * *

وبعد هذه الجولة فى الآفاق وفى أنفسهم لإثبات الوحدانية ونفى الشرك . يأخذ معهم فى جولة أخرى عن الغيب المستور الذى لا يعلمه إلا الخالق الواحد المدبر ، وعن الآخرة وهى غيب من غيب الله ، يشهد المنطق والبداهة والفطرة بضرورته ؛ ويعجز الإدراك والعلم البشرى عن تحديد موعده :

« قل : لا يعلم من فى السماوات والأرض الغيب إلا الله ، وما يشعرون أيان يبعثون . بل ادّارك علمهم فى الآخرة ، بل هم فى شك منها ، بل هم منها عمون . وقال الذين كفروا : أإذا كنا ترابا وآباؤنا أإنا لمخرجون ؟ لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل . إن هذا إلا أساطير الأولين ! قل : سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين . ولا تحزن عليهم ولا تكن فى ضيق مما يمكرون . ويقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ قل : عسى أن يكون ردف لكم بعض الذى تستعجلون . وإن ربك لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون . وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون . وما من غائبة فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين » .

والإيمان بالبعث والحشر ، وبالحساب والجزاء ، عنصر أصيل فى العقيدة ، لا يستقيم منهجها فى الحياة إلا به . فلا بد من عالم مرتقب ، يكمل فيه الجزاء ، ويتناسق فيه العمل والأجر ، ويتعلق به القلب ، وتحسب حسابه النفس ، ويقيم الإنسان نشاطه فى هذه الأرض على أساس ما ينتظره هناك .

ولقد وقفت البشرية فى أجيالها المختلفة ورسالاتها المتوالية موقفاً عجيبا من قضية البعث والدار الآخرة ، على بساطتها وضرورتها . فكان أعجب ما تدهش له أن ينبئها رسول أن هناك بعثاً بعد الموت وحياة بعد الدثور . ولم تكن معجزة بدء الحياة الواقعة التى لا تنكر تلهم البشرية أن الحياة الأخرى أهون وأيسر . ومن ثم كانت تعرض عن نذر الآخرة ، وتستمرىء الجحود والمعصية ، وتستطرد فى الكفر والتكذيب .

والآخرة غيب . ولا يعلم الغيب إلا الله . وهم كانوا يطلبون تحديد موعدها أو يكذبوا بالنذر ، ويحسبوها أساطير ، سبق تكرارها ولم تحقق أبدا !

فهنا يقرر أن الغيب من أمر الله ، وأن علمهم عن الآخرة منته محدود :

« قل : لا يعلم من فى السماوات والأرض الغيب إلا الله ، وما يشعرون أيان يبعثون . بل ادّارك علمهم فى الآخرة ، بل هم فى شك منها ، بل هم منها عمون » . .

ولقد وقف الإنسان منذ بدء الخليقة أمام ستر الغيب المحجوب ، لاينفذ إليه علمه ، ولايعرف مما وراء الستر المسدل ، إلا بقدر ما يكشف له منه علام الغيوب . وكان الخير فى هذا الذى أراده الله ، فلو علم الله أن فى كشف هذا الستر المسبل خيرا لكشفه للإنسان المتطلع الشديد التطلع إلى ما وراءه !

لقد منح الله هذا الإنسان من المواهب والاستعدادات والقوى والطاقات ما يحقق به الخلافة فى الأرض ، وما ينهض به بهذا التكليف الضخم . . ولا زيادة . . وانكشاف ستر الغيب له ليس مما يعينه فى هذه المهمة . بل إن انطباق أهدابه دونه لما يثير تطلعه إلى المعرفة ، فينقب ويبحث . وفى الطريق يخرج المخبوء فى باطن الأرض ، وجوف البحر ، وأقطار الفضاء ؛ ويهتدى إلى نواميس الكون والقوى الكامنة فيه ، والأسرار المودعة فى كيانه لخير البشر ، ويحلل فى مادة الأرض ويركب ، ويعدل فى تكوينها وأشكالها ، ويبتدع فى أنماط الحياة ونماذجها . . حتى يؤدى دوره كاملا فى عمارة هذه الأرض ، ويحقق وعد الله بخلافة هذا المخلوق الإنسانى فيها .

وليس الإنسان وحده هو المحجوب عن غيب الله ، ولكن كل من فى السماوات والأرض من خلق الله . من ملائكة وجن وغيرهم ممن علمهم عند الله . فكلهم موكلون بأمور لا تستدعى انكشاف ستر الغيب لهم ، فيبقى سره عند الله دون سواه .

« قل : لا يعلم من فى السماوات والأرض الغيب إلا الله » . .

وهو نص قاطع لا تبقى بعده دعوى لمدع ، ولا يبقى معه مجال للوهم والخرافة .

وبعد هذا التعميم فى أمر الغيب يخصص فى أمر الآخرة لأنها القضية التى عليها النزاع مع المشركين بعد قضية التوحيد :

« وما يشعرون أيان يبعثون » . .

ينفى عنهم العلم بموعد البعث فى أغمض صوره وهو الشعور . فهم لا يعلمون بهذا الموعد يقينا ، ولا يشعرون به حين يقترب شعورا . فذلك من الغيب الذى يقرر أن لا أحد يعلمه

فى السماوات ولا فى الأرض . . ثم يضرب عن هذا ليتحدث فى موقفهم هم من الآخرة ، ومدى علمهم بحقيقتها :

« بل ادارك علمهم فى الآخرة » . .

فانتهى إلى حدوده ، وقصر عن الوصول إليها ، ووقف دونها لا يبلغها .

« بل هم فى شك منها » . .

لا يستيقنون بمجيئها ، بله أن يعرفوا موعدها ، وينتظروا وقوعها .

« بل هم منها عمون » . .

بل هم عنها فى عمى ، لايبصرون من أمرها شيئا ، ولا يدركون من طبيعتها شيئا .. وهذه أشد بعداً عن الثانية وعن الأولى :

« وقال الذين كفروا : أإذا كنا ترابا وآباؤنا أإنا لمخرجون ؟ » . .

وهذه كانت العقـدة التى يقف أمامها الذين كفروا دائما : أإذا فارقتنا الحياة ، ورمت أجسادنا وتناثرت فى القبور ، وصارت ترابا .. أإذا وقع هذا كله ـ وهو يقع للموتى بعد فترة من دفنهم إلا فى حالات نادرة شاذة ـ أإذا وقع هذا لنا ولآبائنا الذين ماتوا قبلنا يمكن أن نبعث أحياء كرة أخرى ، وأن نخرج من الأرض التى اختلط رفاتنا بترابها فصار ترابا ؟

يقولون هذا وتقف هذه الصورة المادية بينهم وبين تصور الحياة الأخرى . وينسون أنهم خلقوا أول مرة ولم يكونوا من قبل شيئا . ولا يدرى أحد أين كانت الخلايا والذرات التى تكونت منها هياكلهم الأولى . فلقد كانت مفرقة فى أطواء الأرض وأعماق البحار وأجواز الفضاء ، فمنها ما جاء من تربة الأرض، ومنها ما جاء من عناصر الهواء والماء ، ومنها ما قدم من الشمس البعيدة ، ومنها ما تنفسه إنسان أو نبات أو حيوان ، ومنها ما انبعث من جسد رمّ وتبخرت بعض عناصره فى الهواء !.. ثم تمثلت هذه الخلايا والذرات فى طعام يأكلونه، وشراب يشربونه ، وهواء يتنفسونه ، وشعاع يستدفئون به . . ثم إذا هذا الشتيت الذى لا يعلم عدده إلا الله ، ولا يحصى مصادره إلا الله ، يتجمع فى هيكل إنسان ؟ وهو ينمو من بويضة عالقة فى رحم ، حتى يصير جسدا مسجى فى كفن . . فهؤلاء فى خلقتهم أول مرة ، فهل عجب أن يكونوا كذلك أو على نحو آخر فى المرة الآخرة ! ولـكنهم كانوا هكذا يقولون . وبعضهم ما يزال يقوله اليوم مع شىء من الاختلاف !

هكذا كانوا يقولون . ثم يتبعون هذه القولة الجاهلة المطموسة بالتهكم والاستنكار :

« لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل. إن هذا إلا أساطير الأولين » .

فهم كانوا يعرفون أن الرسل من قبل قد أنذروا آباءهم بالبعث والنشور . مما يدل على أن العرب لم تكن أذهانهم خالية من العقيدة ، ولا غفلا من معانيها . إنما كانوا يرون أن الوعود لم تتحقق منذ بعيد ؛ فيبنون على هذا استهتارهم بالوعد الجديد قائلين : إنها أساطير الأولين يرويها محمد — صلى الله عليه وسلم — غافلين أن للساعة موعدها الذى لا يتقدم لاستعجال البشر ولا يتأخر لرجائهم ، إنما يجيء فى الوقت المعلوم لله ، المجهول للعباد فى السماوات والأرض سواء . ولقد قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لجبريل — عليه السلام — وهو يسأله عن الساعة :

« ما المسؤول عنها بأعلم من السائل »[1] .

وهنا يلمس قلوبهم بتوجيهها إلى مصارع الذين كذبوا قبلهم بالوعيد ويسميهم المجرمين :

وفى هذا التوجيه توسيع لآفاق تفكيرهم ، فالجيل من البشر ليس مقطوعا من شجرة البشرية ؛ وهو محكوم بالسنن المتحكمة فيها ؛ وماحدث للمجرمين من قبل يحدث للمجرمين من بعد ؛ فإن السنن لا تحيد ولا تحابى . والسير فى الأرض يطلع النفوس على مثل وسير وأحوال فيها عبرة ، وفيها تفتيح لنوافذ مضيئة . وفيها لمسات للقلوب قد توقظها وتحييها . والقرآن يوجه الناس إلى البحث عن السنن المطردة ، وتدبر خطواتها وحلقاتها ، ليعيشوا حياة متصلة الأوشاج متسعة الآفاق ، غير متحجرة ولا مغلقة ولا ضيقة ولا منقطعة .

وبعد أن يوجههم هذا التوجيه يأمر رسوله — صلى الله عليه وسلم — أن ينفض يديه من أمرهم ، ويدعهم لمصيرهم ، الذى وجههم إلى نظائره ، وألا يضيق صدره بمكرهم ، فإنهم لن يضروه شيئا ، وألا يحزن عليهم فقد أدى واجبه تجاههم وأبلغهم وبصرهم .

« ولا تحزن عليهم . ولا تكن فى ضيق مما يمكرون » . .

وهذا النص يصور حساسية قلبه — صلى الله عليه وسلم — وحزنه على مصير قومه الذى يعلمه من مصائر المكذبين قبلهم ، ويدل كذلك على شدة مكرهم به وبالدعوة وبالمسلمين حتى ليضيق صدره الرحب الكبير .

ثم يمضى فى سرد مقولاتهم عن قضية البعث ، واستهانتهم بالوعيد بالعذاب فى الدنيا أو فى الآخرة :

« ويقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » . .

---

(١) من حديث عبد الله ابن عمر . فى حقيقة الإسلام والإيمان . أخرجه مسلم وأصحاب السنن .

كانوا يقولون هـذا كلما خوفوا بمصائر المجرمين قبلهم ، ومصارعهم التى يمرون عليها مصبحين كقرى لوط ، وآثار ثمود فى الحجر ، وآثار عاد فى الأحقاف ، ومساكن سبأ بعد سيل العرم . . كانوا يقولون مستهزئين : « متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » متى هذا العذاب الذى تخوفوننا به ؟ إن كنتم صادقين فهاتوه ، أو خبرونا بموعده على التحديد !

وهنا يجىء الرد يلقى ظلال الهول المتربص ، وظلال التهكم المنذر فى كلمات قصار :

« قل : عسى أن يكون ردف لـكم بعض الذى تستعجلون » ..

بذلك يثير فى قلوبهم الخوف والقلق من شبح العذاب . فقد يكون وراءهم ــ رديفا لهم كما يكون الرديف وراء الراكب فوق الدابة ــ وهم لا يشعرون . وهم فى غفلتهم يستعجلون به وهو خلف رديف ! فيالها من مفاجأة ترتعش لها الأوصال . وهم يستهزئون ويستهترون !

ومن يدرى . إن الغيب لمحجوب . وإن الستار لمسبل . فما يدرى أحد ما وراءه . وقد يكون على قيد خطوات مايذهل وما يهول ! إنما العاقل من يحذر ، ومن يتهيأ ويستعد فى كل لحظة لما وراء الستر المسدول !

« وإن ربك لذو فضل على الناس ، ولـكن أكثرهم لا يشكرون » . .

وإن فضله ليتجلى فى إمهالهم وتأخير العذاب عنهم وهم مذنبون أو مقصرون ، عسى أن يتوبوا إليه و يثوبوا إلى الطريق المستقيم . « ولـكن أكثرهم لا يشكرون » على هذا الفضل ، إنما يستهزئون ويستعجلون ، أو يسدرون فى غيهم ولا يتدبرون .

« إن ربك ليعلم ماتكن صدورهم وما يعلنون » . .

وهو يمهلهم ويؤخر العذاب عنهم ، مع علمه بما تكنه صدورهم وما تعلنه ألسنتهم وأفعالهم . فهو الإمهال عن علم ، والإمهال عن فضل . وهم بعد ذلك محاسبون عما تكن صدورهم وما يعلنون .

ويختم هـذه الجولة بتقرير علم الله الشامل الـكامل ، الذى لا تخفى عليه خافية فى السماء ولا فى الأرض :

« وما من غائبة فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين » ..

ويجول الفـكر والخيال فى السماء والأرض ، وراء كل غائبة . من شىء ، ومن سر ، ومن قوة ، ومن خبر ، وهى مقيدة بعلم الله ، لا تند منها شاردة ، ولا تغيب منها غائبة . والتركيز

فى السورة كلها على العلم . والإشارات إليه كثيرة ، وهذه واحدة منها نختم بها هذه الجولة .

وبمناسبة الحديث عن علم الله المطلق يذكر ماورد فى القرآن من فصل الخطاب فيما اختلف عليه بنو إسرائيل ، بوصفه طرفا من علم الله المستيقن ، ونموذجا من فضل الله وقضائه بين المختلفين . ليكون هذا تعزية لرسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وليدعهم لله يفصل بينه وبينهم بقضائه الأخير :

« إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون ؟ وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين. إن ربك يقضى بينهم بحكمه وهو العزيز العليم .فتوكل على الله إنك على الحق المبين . إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ، وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » ..

ولقد اختلف النصارى فى المسيح ــ عليه السلام ــ وفى أمه مريم .

قالت جماعة : إن المسيح إنسان محض ، وقالت جماعة : إن الأب والإبن وروح القدس إن هى إلا صور مختلفة أعلن الله بها نفسه للناس . فالله بزعمهم مركب من أقانيم ثلاثة ، الأب والابن وروح القدس (والإبن هو عيسى) فانحدر الله الذى هو الأب فى صورة روح القدس وتجسد فى مريم إنسانا وولد منها فى صورة يسوع ! وجماعة قالت: إن الابن ليس أزليا كالأب بل هو مخلوق من قبل العالم ، ولذلك هو دون الأب وخاضع له ! وجماعة أنكروا كون روح القدس أقنوما ! وقرر مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ميلادية ، ومجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ بأن الإبن وروح القدس مساويان للأب فى وحدة اللاهوت ، وأن الإبن قد ولد منذ الأزل من الأب وأن الروح القدس منبثق من الأب . وقرر مجمع طليطلة سنة ٥٨٩ بأن روح القدس منبثق من الابن أيضا . فاختلفت الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية عند هذه النقطة وظلتا مختلفتين ... فجاء القرآن الكريم يقول كلمة الفصل بين هؤلاء جميعا . وقال عن المسيح : إنه كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه وإنه بشر .. « إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل » . وكان هذا فصل الخطاب فيما كانوا فيه يختلفون .

واختلفوا فى مسألة صلبه مثل هذا الاختلاف . منهم من قال : إنه صلب حتى مات ودفن ثم قام من قبره بعد ثلاثة أيام وارتفع إلى السماء . ومنهم من قال : إن يهوذا أحد حوارييه الذى خانه ودل عليه ألقى عليه شبه المسيح وصلب . ومنهم من قال : ألقى شبهه على الحوارى

سيمون وأخذ به .. وقص القرآن الكريم الخبر اليقين فقال : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » وقال : « ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلىّ ومطهرك . . » وكانت كلمة الفصل فى ذلك الخلاف .

ومن قبل حرف اليهود التوراة وعدلوا تشريعاتها الإلهية ؟ فجاء القرآن الكريم يثبت الأصل الذى أنزله الله : «وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن ، والسن بالسن ، والجروح قصاص » ..

وحدثهم حديث الصدق عن تاريخهم وأنبيائهم ، مجردا من الأساطير الكثيرة التى اختلفت فيها رواياتهم ، مطهرا من الأقذار التى ألصقتها هذه الروايات بالأنبياء ، والتى لم يكد نبى من أنبياء بنى إسرائيل يخرج منها نظيفا ! .. إبراهيم — بزعمهم — قدم امرأته لأبيمالك ملك الفلسطينيين، وإلى فرعون ملك مصر باسم أنها أخته لعله ينال بسببها نعمة فى أعينهما! ويعقوب الذى هو إسرائيل أخذ بركة جده إبراهيم من والده إسحاق بطريق السرقة والحيلة والكذب؟ وكانت بزعمهم هذه البركة لأخيه الأكبر عيصو ! ولوط — بزعمهم — أسكرته بنتاه كل منهما ليلة ليضطجع معها لتنجب منه كى لا يذهب مال أبيها إذ لم يكن له وارث ذكر . وكان ما أرادتا ! وداود رأى من سطوح قصره امرأة جميلة عرف أنها زوجة أحد جنده ، فأرسل هذا الجندى إلى المهالك ليفوز — بزعمهم — بامرأته ! وسليمان مال إلى عبادة (بعل) بزعمهم مجاراة لإحدى نسائه التى كان يعشقها ولا يملك معارضتها !

وقد جاء القرآن فطهر صفحات هؤلاء الرسل الكرام مما لوثتهم به الأساطير الإسرائيلية التى أضافوها إلى التوراة المنزلة ، كما صحح تلك الأساطير عن عيسى ابن مريم — عليه السلام .

وهذا القرآن المهيمن على الكتب قبله الذى يفصل فى خلافات القوم فيها ، ويحكم بينهم فيما اختلفوا فيه هو الذى يجادل فيه المشركون ، وهو الحكم الفصل بين المتجادلين !

« وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين » ..

« هدى » يقيهم من الاختلاف والضلال ، ويوحد المنهج، ويعين الطريق ، ويصلهم بالسنن الكونية الكبرى التى لا تختلف ولا تحيد ، « ورحمة » يرحمهم من الشك والقلق والحيرة ، والتخبط بين المناهج والنظريات التى لا تثبت على حال ؛ ويصلهم بالله يطمئنون إلى جواره ويسكنون إلى كنفه ، ويعيشون فى سلام مع أنفسهم ومع الناس من حولهم ، وينتهون إلى رضوان الله وثوابه الجزيل .

والنهج القرآنى منهج فريد فى إعادة إنشاء النفوس ، وتركيبها وفق نسق الفطرة الخالصة ؛ حيث تجدها متسقة مع الكون الذى تعيش فيه ، متمشية مع السنن التى تحكم هذا الكون — فى يسر وبساطة ، بلا تكلف ولا تعمل . ومن ثم تستشعر فى أعماقها السلام والطمأنينة الكبرى ؛ لأنها تعيش فى كون لا تصطدم مع قوانينه وسننه ولا تعاديه ولا يعاديها متى اهتدت إلى مواضع اتصالها به ، وعرفت أن ناموسها هو ناموسه . وهذا التناسق بين النفس والكون ، وذلك السلام الأكبر بين القلب البشرى والوجود الأكبر ينبع منه السلام بين الجماعة ، والسلام بين البشر ، وتفيض منه الطمأنينة والاستقرار .. وهذه هى الرحمة فى أشمل صورها ومعانيها ..

وبعد هذه اللمحة إلى فضل الله على القوم بهذا القرآن الذى يفصل بين بنى إسرائيل فى اختلافاتهم ويقود المؤمنين به إلى الهدى ويسبغ عليهم الرحمة .. يقرر لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن ربه سيفصل فيما بينه وبين قومه ، ويحكم بينهم حكمه الذى لا مرد له . حكمه القوى المبنى على العلم اليقين :

« فتوكل على الله إنك على الحق المبين » ..

وقد جعل الله انتصار الحق سنة كونية كخلق السماوات والأرض ، واختلاف الليل والنهار. سنة لا تتخلف .. قد تبطئ .تبطئ لحكمة يعلمها الله ، وتتحقق بها غايات يقدرها الله . ولكن السنة ماضية . وعد الله لا يخلف الله وعده . ولا يتم الإيمان إلا باعتقاد صدقه وانتظار تحققه . ولوعد الله أجل لا يستقدم عنه ولا يستأخر .

ويمضى فى تسلية الرسول — صلى الله عليه وسلم — وتأسيته على جموح القوم ولجاجهم فى العناد وإصرارهم على الكفر بعد الجهد الشاق فى النصح والبيان ، وبعد مخاطبتهم بهذا القرآن.. يمضى فى تسليته والتسرية عنه من هذا كله ؛ فهو لم يقصر فى دعوته . ولكنه إنما يسمع أحياء القلوب الذين تعى آذانهم فتتحرك قلوبهم ، فيقبلون على الناصح الأمين . فأما الذين ماتت قلوبهم ، وعميت أبصارهم عن دلائل الهدى والإيمان ، فما له فيهم حيلة ، وليس له إلى قلوبهم سبيل ؛ ولا ضير عليه فى ضلالهم وشرودهم الطويل :

« إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ، وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » ..

والتعبير القرآنى البديع يرسم صورة حية متحركة لحالة نفسية غير محسوسة . حالة جمود القلب ، وخمود الروح ، وبلادة الحس ، وهمود الشعور . فيخرجهم مرة فى صورة الموتى ، والرسول — صلى الله عليه وسلم — يدعو ، وهم لا يسمعون الدعاء ، لأن الموتى لا يشعرون ! ويخرجهم مرة فى هيئة الصم مدبرين عن الداعى ، لأنهم لا يسمعون ! ويخرجهم مرة فى صورة العمى يمضون فى عماهم ؛ لا يرون الهادى لأنهم لا يبصرون ! وتتراءى هذه الصور المجسمة المتحركة ، فتمثل المعنى وتعمقه فى الشعور !

وفى مقابل الموتى والعمى والصم يقف المؤمنون . فهم الأحياء ، وهم السامعون ، وهم المبصرون .

« إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » . .

إنما تسمع الذين تهيأت قلوبهم لتلقى آيات الله،بالحياة والسمع والبصر . وآية الحياة الشعور. وآية السمع والبصر الانتفاع بالمسموع والمنظور . والمؤمنون ينتفعون بحياتهم وسمعهم وأبصارهم. وعمل الرسول — صلى الله عليه وسلم — هو أن يسمعهم ، فيدلهم على آيات الله ، فيستسلمون لتوهم ولحظتهم « فهم مسلمون » .

إن الإسلام بسيط وواضح وقريب إلى الفطرة السليمة ؛ فما يكاد القلب السليم يعرفه ، حتى يستسلم له ، فلا يشاق فيه . وهكذا يصور القرآن تلك القلوب ، القابلة للهدى ، المستعدة للاستماع ، التى لا تجادل ولا تمارى بمجرد أن يدعوها الرسول فيصلها بآيات الله ، فتؤمن لها وتستجيب .

* * *

بعد ذلك يجول بهم جولة أخرى فى أشراط الساعة ، وبعض مشاهدها ، قبل الإيقاع الأخير الذى يختم به السورة . . جولة يذكر فيها ظهور الدابة التى تكلم الناس الذين كانوا لا يؤمنون بآيات الله الكونية . ويرسم مشهداً للحشر والتبكيت للمكذبين بالآيات وهم واجمون صامتون . ويعود بهم من هذا المشهد إلى آيتى الليل والنهار المعروضتين للأبصار وهم عنها غافلون . ثم يرتد بهم ثانية إلى مشهد الفزع يوم ينفخ فى الصور ، ويوم تسير الجبال وتمر مر السحاب ؛ ويعرض عليهم مشهد المحسنين آمنين من ذلك الفزع ، والمسيئين كبت وجوههم فى النار :

« وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم ، أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون .

« ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون . حتى إذا جاءوا قال : أكذبتم بآياتى ولم تحيطوا بها علما ؟ أم ماذا كنتم تعملون ؟ ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون .

« ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا ؟ إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون .

« ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السماوات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، وكل أتوه داخرين . وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب . صنع الله الذى أتقن كل شىء ، إنه خبير بما تفعلون . من جاء بالحسنة فله خير منها ، وهم من فزع يومئذ آمنون . ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار . هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ؟ » . .

وقد ورد ذكر خروج الدابة المذكورة هنا فى أحاديث كثيرة بعضها صحيح ؛ وليس فى هذا الصحيح وصف للدابة . إنما جاء وصفها فى روايات لم تبلغ حد الصحة . لذلك نضرب صفحا عن أوصافها ، فما يعنى شيئا أن يكون طولها ستين ذراعا ، وأن تكون ذات زغب وريش وحافر ، وأن يكون لها لحية ! وأن يكون رأسها رأس ثور ، وعينها عين خنزير ، وأذنها أذن فيل . وقرنها قرن أيل ، وعنقها عنق نعامة ، وصدرها صدر أسد ، ولونها لون نمر ، وخاصرتها خاصرة هر ، وذنبها ذنب كبش ، وقوائمها قوائم بعير . . . إلخ هذه الأوصاف التى افتن فيها المفسرون !

وحسبنا أن نقف عند النص القرآنى والحديث الصحيح الذى يفيد أن خروج الدابة من علامات الساعة ، وأنه إذا انتهى الأجل الذى تنفع فيه التوبة ؛ وحق القول على الباقين فلم تقبل منهم توبة بعد ذلك ؛ وإنما يقضى عليهم بما هم عليه . . عندئذ يخرج الله لهم دابة تكلمهم . والدواب لا تتكلم ، أو لا يفهم عنها الناس . ولكنهم اليوم يفهمون ، ويعلمون أنها الخارقة المنبئة باقتراب الساعة . وقد كانوا لا يؤمنون بآيات الله ، ولا يصدقون باليوم الموعود .

ومما يلاحظ أن المشاهد فى سورة النمل مشاهد حوار وأحاديث بين طائفة من الحشرات والطير والجن وسليمان عليه السلام. فجاء ذكر « الدابة » وتكليمها الناس متناسقا مع مشاهد

السورة وجوها ، محققا لتناسق التصوير فى القرآن ، وتوحيد الجزئيات التى يتألف منها المشهد العام[١] .

ويعبر السياق من هذه العلامة الدالة على اقتراب الساعة ، إلى مشهد الحشر !

« ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون » . .

والناس كلهم يحشرون . إنما شاء أن يبرز موقف المكذبين « فهم يوزعون » يساقون أولهم على آخرهم ، حيث لا إرادة لهم ولا وجهة ولا اختيار .

« حتى إذا جاءوا قال : أكذبتم بآياتى ولم تحيطوا بها علما ؟ أم ماذا كنتم تعملون ؟ » .

والسؤال الأول للتخجيل والتأنيب . فمعروف أنهم كذبوا بآيات الله . أما السؤال الثانى فملؤه التهكم ، وله فى لغة التخاطب نظائر : أكذبتم ؟ أم كنتم تعملون ماذا ؟ فما لكم عمل ظاهر يقال : إنكم قضيتم حياتكم فيه ، إلا هذا التكذيب المستنكر الذى ما كان ينبغى أن يكون . . ومثل هذا السؤال لا يكون عليه جواب إلا الصمت والوجوم ، كأنما وقع على المسؤول ما يلجم لسانه ويكبت جنانه :

« ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون » . .

وحق عليهم القضاء بسبب ظلمهم فى الدنيا ، وهم واجمون صامتون ! ذلك على حين نطقت الدابة قبيل ذلك . وها هم الناس لا ينطقون ! وذلك من بدائع التقابل فى التعبير القرآنى ، وفى آيات الله التى يعبر عنها هذا القرآن .

ونسق العرض فى هذه الجولة ذو طابع خاص ، هو المزاوجة بين مشاهد الدنيا ومشاهد الآخرة ، والانتقال من هذه إلى تلك فى اللحظة المناسبة للتأثر والاعتبار .

وهو هنا ينتقل من مشهد المكذبين بآيات الله ، المبهوتين فى ساحة الحشر إلى مشهد من مشاهد الدنيا ، كان جديرا أن يوقظ وجدانهم ، ويدعوهم إلى التدبر فى نظام الكون وظواهره ، ويلقى فى روعهم أن هناك إلهاً يرعاهم ، ويهيىء لهم أسباب الحياة والراحة ، ويخلق الكون مناسبا لحياتهم لا مقاوماً لها ولا حربا عليها ولا معارضا لوجودها أو استمرارها :

« ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا ؟ إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون » .

---

(١) يراجع فصل التناسق الفنى فى كتاب : التصوير الفنى فى القرآن من ص ٨٦ إلى ص ١٠٧ من الطبعة الثالثة .

ومشهد الليل الساكن ، ومشهد النهار المبصر ، خليقان أن يوقظا فى الإنسان وجدانا دينيا يجنح إلى الاتصال بالله ، الذى يقلب الليل والنهار ، وهما آيتان كونيتان لمن استعدت نفسه للإيمان ، ولكنهم لا يؤمنون .

ولو لم يكن هناك ليل فكان الدهر كله نهارا لانعدمت الحياة على وجه الأرض ؟ وكذلك لو كان الدهر كله ليلا . لابل إنه لو كان النهار أو الليل أطول مما هما الآن عشر مرات فقط لحرقت الشمس فى النهار كل نبات ، ولتجمد فى الليل كل نبات . وعندئذ تستحيل الحياة . فنى الليل والنهار بحالتهما الموافقة للحياة آيات . ولكنهم لا يؤمنون .

ومن آيتى الليل والنهار فى الأرض ، وحياتهم الآمنة المكفولة فى ظل هذا النظام الكونى الدقيق يعبر بهم فى ومضة إلى يوم النفخ فى الصور ، وما فيه من فزع يشمل السماوات والأرض ومن فيهن من الخلائق إلا من شاء الله . وما فيه من تسيير للجبال الرواسى التى كانت علامة الاستقرار ؟ وما ينتهى إليه هذا اليوم من ثواب بالأمن والخير ، ومن عقاب بالفزع والكب فى النار :

« ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السماوات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ؟ وكل أتوه داخرين . وترى الجبال تحسبها جامدة ، وهى تمر مر السحاب ، صنع الله الذى أتقن كل شىء ، إنه خبير بما تفعلون . من جاء بالحسنة فله خير منها ، وهم من فزع يومئذ آمنون. ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار . هل تجزون إلا ما كنتم تعملون » . .

والصور البوق ينفخ فيه . وهذه هى نفخة الفزع الذى يشمل كل من فى السماوات ومن فى الأرض — إلا من شاء الله أن يأمن ويستقر . . قيل هم الشهداء . . وفيها يصعق كل حى فى السماوات والأرض إلا من شاء الله .

ثم تكون نفخة البعث . ثم نفخة الحشر . وفى هذه يحشر الجميع « وكل أتوه داخرين » أذلاء مستسلمين .

ويصاحب الفزع الانقلاب الكونى العام الذى تختل فيه الأفلاك ، وتضطرب دورتها . ومن مظاهر هذا الاضطراب أن تسير الجبال الراسية ، وتمر كأنها السحاب فى خفته وسرعته وتناثره . ومشهد الجبال هكذا يتناسق مع ظل الفزع ، ويتجلى الفزع فيه ؟ وكأنما الجبال

مذعورة مع المذعورين ، مفزوعة مع المفزوعين ، هائمة مع الهائمين الحائرين المنطلقين بلا وجهة ولا قرار !

« صنع الله الذى أتقن كل شىء » .

سبحانه ! يتجلى إتقان صنعته فى كل شىء فى هذا الوجود . فلا فلتة ولا مصادفة ، ولا ثغرة ولا نقص ، ولا تفاوت ولا نسيان . ويتدبر المتدبر كل آثار الصنعة المعجزة ، فلا يعثر على خلة واحدة متروكة بلا تقدير ولا حساب . فى الصغير والكبير ، والجليل والحقير . فكل شىء بتدبير وتقدير ، يدير الرؤوس التى تتابعه وتتملاه(١) .

« إنه خبير بما تفعلون » . .

وهذا يوم الحساب عما تفعلون . قدره الله الذى أتقن كل شىء . وجاء به فى موعده لا يستقدم ساعة ولا يستأخر ؛ ليؤدى دوره فى سنة الخلق عن حكمة وتدبير ؛ وليحقق التناسق بين العمل والجزاء فى الحياتين المتصلتين المتكاملتين ، « صنع الله الذى أتقن كل شىء . إنه خبير بما تفعلون » .

فى هذا اليوم المفزع الرهيب يكون الأمن والطمأنينة من الفزع جزاء الذين أحسنوا فى الحياة الدنيا ، فوق ما ينالهم من ثواب هو أجزل من حسناتهم وأوفر :

« من جاء بالحسنة فله خير منها . وهم من فزع يومئذ آمنون » .

والأمن من هذا الفزع هو وحده جزاء . وما بعده فضل من الله ومنة . ولقد خافوا الله فى الدنيا فلم يجمع عليهم خوف الدنيا وفزع الآخرة . بل أمنهم يوم يفزع من فى السماوات ومن فى الأرض إلا من شاء الله .

« ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار » . .

وهو مشهد مفزع . وهم يكبون فى النار على وجوههم . ويزيد عليهم التبكيت والتوبيخ !

« هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ؟ » . .

فقد تنكبوا الهدى ، وأشاحوا عنه بوجوههم ؛ فهم يجزون به كبا لهذه الوجوه فى النار وقد أعرضت من قبل عن الحق الواضح وضوح الليل والنهار .

* * *

(١) يراجع تفسير قوله تعالى : « وخلق كل شىء فقدره تقديرا » فى سورة الفرقان . الجزء التاسع عشر .

وفى النهاية تجىء الإيقاعات الأخيرة : حيث يلخص الرسول — صلى الله عليه وسلم — دعوته ومنهجه فى الدعوة ؛ ويكلهم إلى مصيرهم الذى يرتضونه لأنفسهم بعد ما مضى من بيان ؛ ويختم بحمد الله كما بدأ ، ويدعهم إلى الله يكشف لهم آياته ، ويحاسبهم على ما يعملون :

« إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها ، وله كل شىء ، وأمرت أن أكون من المسلمين ؛ وأن أتلو القرآن ، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فقل : إنما أنا من المنذرين . وقل : الحمد لله ، سيريكم آياته فتعرفونها . وما ربك بغافل عما تعملون » ..

وهم كانوا يدينون بحرمة البلدة الحرام والبيت الحرام ؛ وكانوا يستمدون سيادتهم على العرب من عقيدة تحريم البيت ؛ ثم لا يوحدون الله الذى حرمه وأقام حياتهم كلها عليه .

فالرسول — صلى الله عليه وسلم — يقوّم العقيدة كما ينبغى أن تقوّم ، فيعلن أنه مأمور أن يعبد رب هذه البلدة الذى حرمها ، لا شريك له ؛ ويكمل التصور الإسلامى للألوهية الواحدة، فرب هذه البلدة هو رب كل شىء فى الوجود « وله كل شىء » ويعلن أنه مأمور بأن يكون من المسلمين . المسلمين كل ما فيهم له . لا شركة فيهم لسواه . وهم الرعيل الممتد فى الزمن المتطاول من الموحدين المستسلمين .

هذا قوام دعوته . أما وسيلة هذه الدعوة فهى تلاوة القرآن :

« وأن أتلو القرآن » . .

فالقرآن هو كتاب هذه الدعوة ودستورها ووسيلتها كذلك . وقد أمر أن يجاهد به الكفار . وفيه وحده الغناء فى جهاد الأرواح والعقول . وفيه ما يأخذ على النفوس أقطارها ، وعلى المشاعر طرقها ؛ وفيه مايزلزل القلوب الجاسية ويهزها هزا لا تبقى معه على قرار . وما شرع القتال بعد ذلك إلا لحماية المؤمنين من الفتنة ، وضمان حرية الدعوة بهذا القرآن ، والقيام على تنفيذ الشرائع بقوة السلطان . أما الدعوة ذاتها فحسبها كتابها .. « وأن أتلو القرآن » .

« فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه . ومن ضل فقل : إنما أنا من المنذرين » . .

وفى هذا تتمثل فردية التبعة فى ميزان الله ، فيما يختص بالهدى والضلال . وفى فردية التبعة بتمثل كرامة هذا الإنسان ، التى يضمنها الإسلام ، فلا يساق سوق القطيع إلى الإيمان . إنما

هى تلاوة القرآن ، وتركه يعمل عمله فى النفوس ، وفق منهجه الدقيق العميق ، الذى يخاطب الفطرة فى أعماقها ، وفق ناموسها المتسق مع منهج القرآن .

« وقل : الحمد لله » مقدمة لما يتحدث عنه من صنع الله :

« سيريكم آياته فتعرفونها » ..

وصدق الله . ففى كل يوم يرى عباده بعض آياته فى الأنفس والآفاق . ويكشف لهم عن بعض أسرار هذا الكون الحافل بالأسرار .

« وما ربك بغافل عما تعملون » ..

وهكذا يلقى إليهم فى الختام هـذا الإيقاع الأخير ، فى هـذا التعبير الملفوف . اللطيف . المخيف .. ثم يدعهم يعملون ما يعملون ، وفى أنفسهم أثر الإيقاع العميق : « وما ربك بغافل عما تعملون » ..

سورة القصص مكية
وآياتها ٨٨

بسم الله الرحمن الرحيم

« طسم * تلك آيات الكتاب المبين * نتلو عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون * إن فرعون علا في الأرض ، وجعل أهلها شيعا ، يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ، ويستحيي نساءهم ، إنه كان من المفسدين * ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم في الأرض ، ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون .

« وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ، ولا تخافي ولا تحزني ، إنا رادوه إليك ، وجاعلوه من المرسلين .

« فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ، إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين * وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ، وهم لا يشعرون .

« وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين * وقالت لأخته : قصيه ، فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون .

« وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ ، فَقَالَتْ : هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ ، وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ؟ * فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ، وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

* * *

« وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ .

« وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا ، فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ : هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ، فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ، فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ ، قَالَ : هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ * قَالَ : رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ، فَغَفَرَ لَهُ ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ .

« فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ، فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ، قَالَ لَهُ مُوسَى : إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ * فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ : يَامُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ؟ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ ، وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ .

« وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى ، قَالَ : يَامُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ، فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ * فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ، قَالَ : رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .

« وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ : عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ .

« وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ، وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ، قَالَ : مَا خَطْبُكُمَا ؟ قَالَتَا : لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا

شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ : رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ .

« فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ، قَالَتْ : إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا . فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ : لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَتْ إِحْدَاهُمَا : يَاأَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ * قَالَ : إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ، فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ ، وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ، سَتَجِدُنِي ـ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ـ مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ : ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ، وَاللَّهُ عَلَى مَانَقُولُ وَكِيلٌ .

* * *

« فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ، قَالَ لِأَهْلِهِ :امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً ، لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْجَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ .

«فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ ، مِنَ الشَّجَرَةِ: أَنْ يَامُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ، فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ ، يَامُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ، إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ * اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِسُوءٍ، وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ، فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ * قَالَ : رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ * وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً ، فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * قَالَ : سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ، بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ .

* * *

« فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا : مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى ، وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ * وَقَالَ مُوسَى : رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَقَالَ فِرْعَوْنُ : يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ، فَأَوْقِدْ لِي يَاهَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ، وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ * فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ * وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ .

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ ، بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » . .

هـذه السورة مكية ، نزلت والمسلمون فى مكة قلة مستضعفة ، والمشركون هم أصحاب الحول والطول والجـاه والسلطان . نزلت تضع الموازين الحقيقية للقوى والقيم ، نزلت تقرر أن هناك قوة واحدة فى هـذا الوجود ، هى قوة الله ؛ وأن هنـاك قيمـة واحدة فى هذا الـكون ، هى قيمة الإيمـان . فمن كانت قوة الله معه فلا خوف عليـه ، ولو كان مجردا من كل مظاهر القوة ، ومن كانت قوة الله عليه فلا أمن له ولا طمأنينة ولو ساندته جميع القوى ؛ ومن كانت له قيمة الإيمان فله الخير كله ، ومن فقد هذه القيمة فليس بنافعه شىء أصلا .

ومن ثم يقوم كيان السورة على قصة موسى وفرعون فى البدء ، وقصة قارون مع قومه ـ قوم موسى ـ فى الختام . . الأولى تعرض قوة الحكم والسلطان . قوة فرعون الطاغية المتجبر اليقظ الحذر ؛ وفى مواجهتها موسى طفلا رضيعا لا حول له ولا قوة ، ولا ملجأ له ولا وقاية . وقد علا فرعون فى الأرض ، واتخذ أهلها شيعا ، واستضعف بنى إسرائيل ، يذبح أبناءهم ،

ويستحيي نساءهم ،وهوعلى حذر منهم ،وهوقابض على أعناقهم . ولـكن قوة فرعون وجبروته، وحذره ويقظته ، لا تغنى عنه شيئا ؛ بل لاتمـكن له من موسى الطفل الصغير ، المجرد من كل قوة وحيلة ، وهو فى حراسة القوة الحقيقية الوحيدة ترعاه عين العناية ، وتدفع عنه السوء ، وتعمى عنه العيون ، وتتحدى به فرعون وجنده تحديا سافرا ، فتدفع به إلى حجره ، وتدخل به عليه عرينه ، بل تقتحم به عليه قلب امرأته وهو مكتوف اليدين إزاءه ، مكفوف الأذى عنه ، يصنع بنفسه لنفسه ما يحذره ويخشاه !

والقصة الثانية تعرض قيمة المال ، ومعها قيمة العلم . المال الذى يستخف القوم وقد خرج عليهم قارون فى زينته،وهم يعلمون أنه أوتى من المال ماإن مفاتحه لتنوء بالعصبة من الرجال الأقوياء. والعلم الذى يعتز به قارون ، ويحسب أنه بسببه وعن طريقه أوتى ذلك المال. ولـكن الذين أوتوا العلم الصحيح من قومه لا تستخفهم خزائنه ، ولا تستخفهم زينته ؛ بل يتطلعون إلى ثواب الله ، ويعلمون أنه خير وأبقى . ثم تتدخل يد الله فتخسف به وبداره الأرض ، لا يغنى عنه ماله ولا يغنى عنه علمه ؛ وتتدخل تدخلا مباشرا سافرا كما تدخلت فى أمر فرعون ، فألقته فى اليم هو وجنوده فـكان من المغرقين .

لقد بغى فرعون على بنى إسرائيل واستطال بجبروت الحـكم والسلطان ؛ ولقد بغى قارون عليهم واستطال بجبروت العلم والمال . وكانت النهاية واحدة ، هذا خسف به وبداره ، وذلك أخذه اليم هو وجنوده . ولم تـكن هنالك قوة تعارضها من قوى الأرض الظاهرة . إنما تدخلت يد القدرة سافرة فوضعت حـدا للبغى والفساد ، حينما عجز النـاس عن الوقوف للبغى والفساد .

ودلت هذه وتلك على أنه حين يتمحض الشر ويسفر الفساد ويقف الخير عاجزا والصلاح حسيرا ؛ ويخشى من الفتنه بالبأس والفتنة بالمال . عندئذ تتدخل يد القدرة سافرة متحدية ، بلا ستار من الخلق ، ولا سبب من قوى الأرض ، لتضع حدا للشر والفساد [1] .

---

(١) سبق أن قلت فى تفسير سورة طه فى صفحة ٩٨ من الجزء السادس عشر :

« إنه حين كان بنو إسرائيل يؤدون ضريبة الذل لفرعون وهو يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم لم تتدخل يد القدرة لإدارة المعركة . فهم لم يكونوا يؤدون هذه الضريبة إلا ذلا واستكانة وخوفا . فأما حين استعلن الإيمان فى قلوب الذين آمنوا بموسى واستعدوا لاحتمال التعذيب، وهم مرفوعو الرؤوس يجهرون بكلمة الإيمان —

وبين القصتين يجول السياق مع المشركين جولات يبصرهم فيها بدلالة القصص ـ في سورة القصص ـ ويفتح أبصارهم على آيات الله المبثوثة في مشاهد الكون تارة ، وفي مصارع الغابرين تارة ، وفي مشاهد القيامة تارة ..وكلها تؤكد العبر المستفادة من القصص ، وتساوقها وتتناسق معها ؛ وتؤكد سنة الله التي لا تتخلف ولا تتبدل على مدار الزمان . وقد قال المشركون لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا » . فاعتذروا عن عدم اتباعهم الهدى بخوفهم من تخطف الناس لهم ، لو تحولوا عن عقائدهم القديمة التي من أجلها يخضع الناس لهم ، ويعظمون البيت الحرام ويدينون للقائمين عليه .

فساق الله إليهم في هذه السورة قصة موسى وفرعون ، تبين لهم أين يكون الأمن وأين تكون المخافة ؛ وتعلمهم أن الأمن إنما يكون في جوار الله ، ولو فقدت كل أسباب الأمن الظاهرة التي تعارف عليها الناس ؛ وأن الخوف إنما يكون في البعد عن ذلك الجوار ولو تظاهرت أسباب الأمن الظاهرة التي تعارف عليها الناس ! وساق لهم قصة قارون تقرر هذه الحقيقة في صورة أخرى وتؤكدها .

وعقب على مقالتهم « أولم نمكن لهم حرما آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ؟ ولكن أكثرهم لا يعلمون » .. يذكرهم بأنه هو الذي آمنهم من الخوف فهو الذي جعل لهم هذا الحرم الآمن ؛ وهو الذي يديم عليهم أمنهم ، أو يسلبهم إياه ؛ ومضى ينذرهم عاقبة البطر وعدم الشكر : « وكم من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا ، وكنا نحن الوارثين » .

ويخوفهم عاقبة أمرهم بعد أن أعذر إليهم وأرسل فيهم رسولا . وقد مضت سنة الله من قبل بإهلاك المكذبين بعد مجيء النذير : « وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا ، وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون » .

= في وجه فرعون دون تلجلج ، ودون تحرج ، ودون اتقاء التعذيب . فأما عند ذلك فقد تدخلت يد القدرة لإدارة المعركة ، وإعلان النصر الذي تم قبل ذلك في الأرواح والقلوب » .

والذي قلته هنا أصح ، بشهادة سياق القصة في هذه السورة . وإن كان لما قلت في سورة طه مكانه بتغيير في العبارة . فإن يد القدرة تدخلت منذ أول الأمر لإدارة المعركة . ولكن النصر النهائي لم يتم تمامه إلا بعد استعلان الإيمان في قلوب الذين آمنوا بموسى بعد رسالته ، وجهروا بكلمة الحق في وجه الطغيان العاتي المتجبر .

ثم يعرض عليهم مشهدهم يوم القيامة حين يتخلى عنهم الشركاء على رؤوس الأشهاد ؛ فيبصرهم بعذاب الآخرة بعد أن حذرهم عذاب الدنيا ؛ وبعد أن علمهم أين يكون الخوف وأين يكون الأمان .

وتنتهى السورة بوعد من الله لرسوله الكريم وهو مخرج من مكة مطارد من المشركين بأن الذى فرض عليه القرآن لينهض بتكاليفه ، لابد رادّه إلى بلده ، ناصره على الشرك وأهله. وقد أنعم عليه بالرسالة ولم يكن يتطلع إليها ؛ وسينعم عليه بالنصر والعودة إلى البلد الذى أخرجه منه المشركون . سيعود آمنا ظافرا مؤيدا . وفى قصص السورة ما يضمن هذا ويؤكده . فقد عاد موسى — عليه السلام — إلى البلد الذى خرج منه خائفا طريدا . عاد فأخرج معه بنى إسرائيل واستنقذهم ، وهلك فرعون وجنوده على أيدى موسى وقومه الناجين ..

ويختم هذا الوعد ويختم السورة معه بالإيقاع الأخير :

« ولا تدع مع الله إلهـا آخر ، لا إله إلا هو ، كل شىء هالك إلا وجهه ، له الحكم ، وإليه ترجعون » .

هذا هو موضوع السورة وجوها وظلالها العامة ، فلنأخذ فى تفصيل أشواطها الأربعة : قصة موسى . والتعقيب عليها . وقصة قارون . وهذا الوعد الأخير ...

* * *

تبدأ السورة بالأحرف المقطعة :

« طا . سين . ميم » .. تلك آيات الكتاب المبين » ..

تبدأ السورة بهذه الأحرف للتنبيه إلى أنه من مثلها تتألف آيات الكتاب المبين ، البعيدة الرتبة ، المتباعدة المدى بالقياس لما يتألف عادة من هذه الأحرف ، فى لغة البشر الفانين :

« تلك آيات الكتاب المبين » ..

فهذا الكتاب المبين ليس إذن من عمل البشر ، وهم لا يستطيعونه ؛ إنما هو الوحى الذى يتلوه الله على عبده ، ويبدو فيه إعجاز صنعته ، كما يبدو فيه طابع الحق المميز لهذه الصنعة فى الكبير والصغير :

« نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون » ..

فإلى القوم المؤمنين يوجه هذا الكتاب ؛ يربيهم به وينشئهم ويرسم لهم المنهاج ، ويشق لهم الطريق . وهذا القصص المتلو فى السورة ، مقصود به أولئك المؤمنين ، وهم به ينتفعون .

وهذه التلاوة المباشرة من الله ، تلقى ظلال العناية والاهتمام بالمؤمنين ؛ وتشعرهم بقيمتهم العظيمة ومنزلتهم العالية الرفيعة . وكيف ؟ والله ذو الجلال يتلو على رسوله الكتاب من أجلهم ، ولهم ؛ بصفتهم هذه التى تؤهلهم لتلك العناية الكريمة : « لقوم يؤمنون » .

وبعد هذا الافتتاح يبدأ فى عرض النبأ . نبأ موسى وفرعون . يبدأ فى عرضه منذ أول حلقة فى القصة ــ حلقة ميلاده ــ ولا تبدأ مثل هذا البدأ فى أية سورة أخرى من السور الكثيرة التى وردت فيها . ذلك أن الحلقة الأولى من قصة موسى ، والظروف القاسية التى ولد فيها ؛ وتجرده فى طفولته من كل قوة ومن كل حيلة ؛ وضعف قومه واستذلالهم فى يد فرعون . . ذلك كله هو الذى يؤدى هدف السورة الرئيسى ؛ ويبرز يد القدرة سافرة متحدية تعمل وحدها بدون ستار من البشر ؛ وتضرب الظلم والطغيان والبغى ضربة مباشرة عند مايعجز عن ضربها البشر ؛ وتنصر المستضعفين الذين لاحول لهم ولا قوة ؛ وتمكن للمعذبين الذين لا حيلة لهم ولا وقاية . وهو المعنى الذى كانت القلة المسلمة المستضعفة فى مكة فى حاجة إلى تقريره وتثبيته ؛ وكانت الكثرة المشركة الباغية الطاغية فى حاجة إلى معرفته واستيقانه .

ولقد كانت قصة موسى ــ عليه السلام ــ تبدأ غالبا فى السور الأخرى من حلقة الرسالة ــ لا من حلقة الميلاد ــ حيث يقف الإيمان القوى فى وجه الطغيان الباغى ؛ ثم ينتصر الإيمان وينخذل الطغيان فى النهاية . فأما هنا فليس هذا المعنى هو المقصود؛ إنما المقصود أن الشرّ حين يتمحض يحمل سبب هلاكه فى ذاته ؛ والبغى حين يتمرد لايحتاج إلى من يدفعه من البشر ؛ بل تتدخل يد القدرة وتأخذ بيد المستضعفين المعتدى عليهم ، فتنقذهم وتستنقذ عناصر الخير فيهم ، وتربيهم ، وتجعلهم أئمة ، وتجعلهم الوارثين .

فهذا هو الغرض من سوق القصة فى هذه السورة؛ ومن ثم عرضت من الحلقة التى تؤدى هذا الغرض وتبرزه، والقصة فى القرآن تخضع فى طريقة عرضها للغرض المراد من هذا العرض . فهى أداة تربية للنفوس ، ووسيلة تقرير لمعان وحقائق ومبادىء . وهى تتناسق فى هذا مع السياق الذى تعرض فيه ، وتتعاون فى بناء القلوب ، وبناء الحقائق التى تعمر هذه القلوب .

والحلقات المعروضة من القصة هنا هى : حلقة مولد موسى ـ عليه السلام ـ وما أحاط بهذا المولد من ظروف قاسية فى ظاهرها ، وما صاحبه من رعاية الله وعنايته. وحلقة فتوته وما آتاه الله من الحكم والعلم ، وما وقع فيها من قتل القبطى ، وتآمر فرعون وملئه عليه ، وهربه من مصر إلى أرض مدين ، وزواجه فيها ، وقضاء سنوات الخدمة بها . وحلقة النداء والتكليف بالرسالة . ثم مواجهة فرعون وملئه وتكذيبهم لموسى وهارون . والعاقبة الأخيرة ـ الغرق ـ مختصرة سريعة .

ولقد أطال السياق فى عرض الحلقة الأولى والحلقة الثانية ـ وهما الحلقتان الجديدتان فى القصة فى هذه السورة ـ لأنهما تكشفان عن تحدى القدرة السافرة للطغيان الباغى . وفيها يتجلى عجز قوة فرعون وحيلته وحذره عن دفع القدر المحتوم والقضاء النافذ : « ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » .

وعلى طريقة القرآن فى عرض القصة ، قسمها إلى مشاهد؛ وجعل بينها فجوات فنية يملؤها الخيال ، فلا يفوت القارئ شىء من الأحداث والمناظر المتروكة بين المشهد والمشهد ، مع الاستمتاع الفنى بحركة الخيال الحية .

وقد جاءت الحلقة الأولى فى خمسة مشاهد . والحلقة الثانية فى تسعة مشاهد والحلقة الثالثة فى أربعة مشاهد . وبين الحلقة والحلقة فجوة كبيرة أو صغيرة . وبين كل مشهد ومشهد ، كما يسدل الستار ويرفع عن المنظر أو المشهد .

وقبل أن يبدأ القصة يرسم الجو الذى تدور فيه الأحداث ، والظرف الذى يجرى فيه القصص ، ويكشف عن الغاية المخبوءة وراء الأحداث ، والتى من أجلها يسوق هذا القصص . . وهى طريقة من طرق العرض القرآنى للقصة. تساوق موضوعها وأهدافها فى هذا الموضع من القرآن :

« إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا ، يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ، ويستحيى نساءهم ، إنه كان من المفسدين . ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم فى الأرض ، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » . .

وهكذا يرسم المسرح الذى تجرى فيه الحوادث ، وتنكشف اليد التى تجريها . وتنكشف

معها الغاية التى تتوخاها . وانكشاف هذه اليد ، وبروزها سافرة بلا ستار منذ اللحظة الأولى مقصود فى سياق القصة كلها ، متمش مع أبرز هدف لها. ومن ثم تبدأ القصة هذا البدء .وذلك من بدائع الأداء فى هذا الكتاب العجيب .

ولا يعرف على وجه التحديد من هو الفرعون الذى تجرى حوادث القصة فى عهده ، فالتحديد التاريخى ليس هدفا من أهداف القصة القرآنية ؛ ولا يزيد فى دلالتها شيئاً . ويكفى أن نعلم أن هذا كان بعد زمان يوسف ـ عليه السلام ـ الذى استقدم أباه وإخوته . وأبوه يعقوب هو « إسرائيل » وهؤلاء كانوا ذريته . وقد تكاثروا فى مصر وأصبحوا شعبا كبيرا .

فلما كان ذلك الفرعون الطاغية « علا فى الأرض » وتكبر وتجبر ، وجعل أهل مصر شيعا ،كل طائفة فى شأن من شئونه . ووقع أشد الاضطهاد والبغى على بنى إسرائيل ، لأن لهم عقيدة غير عقيدته هو وقومه ؛ فهم يدينون بدين جدهم إبراهيم وأبيهم يعقوب ؛ ومهما يكن قد وقع فى عقيدتهم من فساد وانحراف ، فقد بقى لها أصل الاعتقاد بإله واحد ؛ وإنكار ألوهية فرعون والوثنية الفرعونية جميعا.

وكذلك أحس الطاغية أن هناك خطرا على عرشه وملكه من وجود هذه الطائفة فى مصر ؛ ولم يكن يستطيع أن يطردهم منها وهم جماعة كبيرة أصبحت تعد مئات الألوف ، فقد يصبحون إلبا عليه مع جيرانه الذين كانت تقوم بينهم وبين الفراعنة الحروب ، فابتكر عندئذ طريقة جهنمية خبيثة للقضاء على الخطر الذى يتوقعه من هذه الطائفة التى لا تعبده ولا تعتقد بألوهيته ، تلك هى تسخيرهم فى الشاق الخطر من الأعمال ، واستذلالهم وتعذيبهم بشتى أنواع العذاب .وبعد ذلك كله تذبيح الذكور من أطفالهم عند ولادتهم ،واستبقاءالإناث كى لا يتكاثر عدد الرجال فيهم . وبذلك يضعف قوتهم بنقص عدد الذكور وزيادة عدد الإناث ، فوق مايصبه عليهم من نكال وعذاب .

وروى أنه وكل بالحوامل من نسائهم قوابل مولدات يخبرنه بمواليد بنى إسرائيل ، ليبادر بذبح الذكور ، فور ولادتهم حسب خطته الجهنمية الخبيثة ، التى لا تستشعر رحمة بأطفال أبرياء لا ذنب لهم ولا خطيئة .

هذه هى الظروف التى تجرى فيها قصة موسى ـ عليه السلام ـ عند ولادته ، كما وردت فى هذه السورة :

« إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا ، يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم. إنه كان من المفسدين » ..

ولكن الله يريد غير ما يريد فرعون ؛ ويقدر غير ما يقدر الطاغية . والطغاة البغاة تخدعهم قوتهم وسطوتهم وحيلتهم ، فينسون إرادة الله وتقديره ؛ ويحسبون أنهم يختارون لأنفسهم ما يحبون ، ويختارون لأعدائهم ما يشاءون . ويظنون أنهم على هذا وذاك قادرون.

والله يعلن هنا إرادته هو ، ويكشف عن تقديره هو ؛ ويتحدى فرعون وهامان وجنودهما، بأن احتياطهم وحذرهم لن يجديهم فتيلا :

« ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم فى الأرض ، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » .

فهؤلاء المستضعفون الذين يتصرف الطاغية فى شأنهم كما يريد له هواه البشع النكير ، فيذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم ، ويسومهم سوء العذاب والنكال . وهو مع ذلك يحذرهم ويخافهم على نفسه وملكه ؛ فيبث عليهم العيون والأرصاد ، ويتعقب نسلهم من الذكور فيسلمهم إلى الشفار كالجزار ! هؤلاء المستضعفون يريد الله أن يمن عليهم بهباته من غير تحديد؛ وأن يجعلهم أئمة وقادة لا عبيدا ولا تابعين ؛ وأن يورثهم الأرض المباركة (التى أعطاهم إياها عند ما استحقوها بعد ذلك بالإيمان والصلاح) وأن يمكن لهم فيها فيجعلهم أقوياء راسخى الأقدام مطمئنين . وأن يحقق ما يحذره فرعون وهامان وجنودهما ، وما يتخذون الحيطة دونه ، وهم لا يشعرون !

هكذا يعلن السياق قبل أن يأخذ فى عرض القصة ذاتها . يعلن واقع الحال ، وما هو مقدر فى المآل . ليقف القوتين وجها لوجه : قوة فرعون المنتفشة المنتفخة التى تبدو للناس قادرة على الكثير . وقوة الله الحقيقية الهائلة التى تتهاوى دونها القوى الظاهرية الهزيلة التى ترهب الناس !

ويرسم بهذا الإعلان مسرح القصة قبل أن يبدأ فى عرضها . والقلوب معلقة بأحداثها وماجرياتها ، وما ستنتهى إليه ، وكيف تصل إلى تلك النهاية التى أعلنها قبل البدء فى عرضها .

ومن ثم تنبض القصة بالحياة ؛ وكأنها تعرض لأول مرة ، على أنها رواية معروضة الفصول، لا حكاية غبرت فى التاريخ . وهذه ميزة طريقة الأداء القرآنية بوجه عام .

* * *

ثم تبدأ القصة . ويبدأ التحدى وتنكشف يد القدرة تعمل سافرة بلا ستار :

لقد ولد موسى فى ظل تلك الأوضاع القاسية التى رسمها قبل البدء فى القصة ؛ ولد والخطر محدق به ، والموت يتلفت عليه ، والشفرة مشرعة على عنقه ، تهم أن تحتز رأسه . .

وها هى ذى أمه حائرة به ، خائفة عليه ، تخشى أن يصل نبؤه إلى الجلادين ، وترجف أن تتناول عنقه السكين . ها هى ذى بطفلها الصغير فى قلب المخافة ، عاجزة عن حمايته ، عاجزة عن إخفائه ، عاجزة عن حجز صوته الفطرى أن ينم عليه ؛ عاجزة عن تلقينه حيلة أو وسيلة.. ها هى ذى وحدها ضعيفة عاجزة مسكينة .

هنا تتدخل يد القـدرة ، فتتصل بالأم الوجلة القلقة المذعورة ، وتلقى فى روعها كيف تعمل ، وتوحى إليها بالتصرف :

« وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ، ولا تخافى ولا تحزنى » . .

يا لله ! يا للقدرة ! يا أم موسى أرضعيه . فإذا خفت عليه وهو فى حضنك . وهو فى رعايتك. إذا خفت عليه وفى فمه ثديك ، وهو تحت عينيك . إذا خفت عليه « فألقيه فى اليم » !!

« ولا تخافى ولا تحزنى » إنه هنا . . فى اليم . . فى رعاية اليد التى لا أمن إلا فى جوارها، اليد التى لا خوف معها . اليد التى لا تقرب المخاوف من حماها . اليد التى تجعل النار بردا وسلاما ، وتجعل البحر ملجأ ومناما . اليد التى لا يجرؤ فرعون الطاغية الجبار ولا جبابرة الأرض جميعا أن يدنوا من حماها الآمن العزيز الجناب .

« إنا رادوه إليك » .. فلا خوف على حياته ولا حزن على بعده .. « وجاعلوه من المرسلين » .. وتلك بشارة الغد ، ووعد الله أصدق القائلين .

هـذا هو المشهد الأول فى القصة . مشهد الأم الحائرة الخائفة القلقة الملهوفة تتلقى الإيحاء المطمئن المبشر المثبت المريح . وينزل هذا الإيحاء على القلب الواجف المحرور بردا وسلاما . ولا يذكر السياق كيف تلقته أم موسى ، ولا كيف نفذته . إنما يسدل الستار عليها ، ليرفعه فإذا نحن أمام المشهد الثانى :

« فالتقطه آل فرعون » . .

أهذا هو الأمن ؟ أهذا هو الوعد ؟ أهذه هى البشارة ؟

وهل كانت المسكينة تخشى عليه إلا من آل فرعون ؟ وهل كانت ترجف إلا أن ينكشف أمره لآل فرعون ؟ وهل كانت تخاف إلا أن يقع فى أيدى آل فرعون ؟

نعم او لكنها القدرة تتحدى. تتحدى بطريقة سافرة مكشوفة. تتحدى فرعون وهامان وجنودهما. إنهم ليتتبعون الذكور من مواليد قوم موسى خوفا على ملكهم وعرشهم وذواتهم . ويبثون العيون والأرصاد على قوم موسى كى لا يفلت منهم طفل ذكر .. فها هى ذى يد القدرة تلقى فى أيديهم بلا بحث ولا كد بطفل ذكر . وأى طفل ؟ إنه الطفل الذى على يديه هلاكهم أجمعين ! هاهى ذى تلقيه فى أيديهم مجردا من كل قوة ومن كل حيلة ، عاجزا عن أن يدفع عن نفسه أو حتى يستنجد ! هاهى ذى تقتحم به على فرعون حصنه وهو الطاغية السفاح المتجبر ، ولا تتعبه فى البحث عنه فى بيوت بنى إسرائيل ، وفى أحضان نسائهم الوالدات !

ثم هاهى ذى تعلن عن مقصدها سافرة متحدية :

« ليكون لهم عدوا وحزنا » .

ليكون لهم عدوا يتحداهم وحزنا يدخل الهم على قلوبهم :

« إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين » . .

ولكن كيف ؟ كيف وهاهو ذا بين أيديهم ، مجردا من كل قوة ، مجردا من كل حيلة ؟ لندع السياق يجيب:

« وقالت امرأة فرعون : قرة عين لى ولك ، لا تقتلوه ، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ؟ وهم لا يشعرون » . .

لقد اقتحمت به يد القدرة على فرعون قلب امرأته ، بعد ما اقتحمت به عليه حصنه . لقد حمته بالمحبة . ذلك الستار الرقيق الشفيف . لا بالسلاح ولا بالجاه ولا بالمال . حمته بالحب الحانى فى قلب امرأة . وتحدت به قسوة فرعون وغلظته وحرصه وحذره .. وهان فرعون على الله أن يحمى منه الطفل الضعيف بغير هذا الستار الشفيف !

« قرة عين لى ولك » . .

وهو الذى تدفع به يد القدرة إليهم ليكون لهم ـ فيما عدا المرأة ـ عدوا وحزنا !

« لا تقتلوه » . .

وهو الذى على يده مصرع فرعون وجنده !

« عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا » ..

وهو الذى تخبئ لهم الأقدار من ورائه ماحذروا منه طويلا !

« وهم لا يشعرون » . .

فيا للقدرة القادرة التى تتحداهم وتسخر منهم وهم لا يشعرون !

وينتهى المشهد الثانى ويسدل الستار عليه إلى حين .

ذلك شأن موسى . فما بال أمه الوالهة وقلبها الملهوف ؟

« وأصبح فؤاد أم موسى فارغا . إن كادت لتبدى به . لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين . وقالت لأخته : قصيه » . .

لقد سمعت الإيحاء ، وألقت بطفلها إلى الماء . ولكن أين هو ياترى وماذا فعلت به الأمواج ؟ ولعلها سألت نفسها : كيف ؟ كيف أمنت على فلذة كبدى أن أقذف بها فى اليم ؟ كيف فعلت مالم تفعله من قبل أم ؟ كيف طلبت له السلامة فى هذه المخافة ؟ وكيف استسلمت لذلك الهاتف الغريب ؟

والتعبير القرآنى يصور لنا فؤاد الأم المسكينة صورة حية : « فارغا » . . لا عقل فيه ولا وعى ولا قدرة على نظر أو تصريف !

« إن كادت لتبدى به » . . وتذيع أمرها فى الناس ، وتهتف كالمجنونة : أنا أضعته . أنا أضعت طفلى . أنا ألقيت به فى اليم اتباعا لهاتف غريب !

« لولا أن ربطنا على قلبها » .. وشددنا عليه وثبتناها ، وأمسكنا بها من الهيام والشرود .

« لتكون من المؤمنين » . . المؤمنين بوعد الله ، الصابرين على ابتلائه ، السائرين على هداه .

ولم تسكت أم موسى عن البحث والمحاولة !

« وقالت لأخته : قصيه » . . اتبعى أثره ، واعرفى خبره ، إن كان حيا ، أو أكلته دواب البحر أو وحوش البر . . أو أين مقره ومرساه ؟

وذهبت أخته تقص أثره فى حذر وخفية ، وتتلمس خبره فى الطرق والأسواق . فإذا بها

تعرف أين ساقته القدرة التى ترعاه ؛ وتبصر به عن بعد فى أيدى خدم فرعون يبحثون له عن ثدى للرضاع :

« فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون . وحرمنا عليه المراضع من قبل . فقالت : هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ؟ » . .

إن القدرة التى ترعاه تدبر أمره ، وتكيد به لفرعون وآله ؛ فتجعلهم يلتقطونه ، وتجعلهم يحبونه ، وتجعلهم يبحثون له عن ظئر ترضعه ، وتحرم عليه المراضع ، لتدعهم يحتارون به ؛ وهو يرفض الثدىّ كلما عرضت عليه ، وهم يخشون عليه الموت أو الذبول ! حتى تبصر به أخته من بعيد ، فتعرفه وتتيح لها القدرة فرصة لهفتهم على مرضع ، فتقول لهم : « هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون » ؟ فيتلقفون كلماتها ، وهم يستبشرون ، يودون لو تصدق فينجو الطفل العزيز المحبوب !

وينتهى المشهد الرابع ؛ فنجدنا أمام المشهد الخامس والأخير فى هذه الحلقة . وقد عاد الطفل الغائب لأمه الملهوفة . معافى فى بدنه ، مرموقا فى مكانته ، يحميه فرعون ، وترعاه امرأته ، وتضطرب المخاوف من حوله وهو آمن قرير . وقد صاغت يد القدرة الحلقة الأولى من تدبيرها العجيب :

« فرددناه إلى أمه ، كى تقر عينها ولا تحزن ، ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون » . .

* * *

ويسكت سياق القصة بعد هذا عن السنوات الطوال ما بين مولد موسى ـ عليه السلام ـ والحلقة التالية التى تمثل شبابه واكتماله . فلا نعلم ماذا كان بعد رده إلى أمه لترضعه . ولا كيف تربى فى قصر فرعون . ولا كيف كانت صلته بأمه بعد فترة الرضاعة . ولا كيف كان مكانه فى القصر أو خارجه بعد أن شب وكبر إلى أن تقع الأحداث التالية فى الحلقة الثانية . ولا كيف كانت عقيدته ، وهو الذى يصنع على عين الله ، ويعد لوظيفته ، فى وسط عباد فرعون وكهنته . .

يسكت سياق القصة عن كل هذا ويبدأ الحلقة الثانية مباشرة حين بلغ أشده واستوى ،

فقد آتاه الله الحكمة والعلم ، وجزاه جزاء المحسنين :

« ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما . وكذلك نجزى المحسنين » ..

وبلوغ الأشد اكتمال القوى الجسمية . والاستواء اكتمال النضوج العضوى والعقلى . وهو يكون عادة حوالى سن الثلاثين . فهل ظل موسى فى قصر فرعون ، ربيبا ومتبنى لفرعون وزوجه حتى بلغ هـذه السن ؟ أم إنه افترق عنهما ، واعتزل القصر ، ولم تسترح نفسه للحياة فى ظل تلك الأوضاع الآسنة التى لا تستريح لها نفس مصفاة مجتباة كنفس موسى ـ عليـه السلام ـ ؟ وبخاصة أن أمه لابد أن تكون قد عرّفته من هو ومن قومه وما ديانته . وهو يرى كيف يسام قومه الخسف البشع والظلم الشنيع ، والبغى اللئيم ؛ وهو يرى أبشع صورة للفساد الشائع الأثيم .

ليس لدينا من دليل . ولـكن سياق الحوادث بعد هذا يلهم شيئا من هذا كما سيجىء ؛ والتعقيب على إتيانه الحكمة والعلم : « وكذلك نجزى المحسنين » يشى كذلك بأنه أحسن فأحسن الله إليه بالحكمة والعلم :

« ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، فوجد فيها رجلين يقتتلان : هذا من شيعته وهذا من عدوه ؛ فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه ؛ فوكزه موسى فقضى عليه . قال : هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين . قال : رب إنى ظلمت نفسى ، فاغفر لى ، فغفر له ، إنه هو الغفور الرحيم . قال : رب بما أنعمت علىّ فلن أكون ظهيرا للمجرمين » ..

ودخل المدينة . . والمفهوم أنها العاصمة وقتئذ . . فمن أى مكان جاء فدخلها ؟ وهل كان من القصر فى عين شمس ؟ أم إنه كان قد اعتزل القصر والعاصمة ، ثم دخل إليها على حين غفلة من أهلها ، فى وقت الظهيرة مثلا حين تغفو العيون ؟

لقد دخل المدينة على كل حال « فوجد فيها رجلين يقتتلان . هذا من شيعته وهـذا من عدوه . فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه » . .

وقد كان أحدهما قبطيا ـ يقال إنه من حاشية فرعون ، ويقال إنه طباخ القصر . والآخر إسرائيلى . وكانا يقتتلان . فاستغاث الإسرائيلى بموسى مستنجدا به على عـدوهما القبطى . فـكيف وقع هـذا ؟ كيف استغاث الإسرائيلى بموسى ربيب فرعون على رجل من رجال

فرعون ؟ إن هذا لا يقع إذا كان موسى لا يزال فى القصر ، متبنى ، أو من الحاشية . إنما يقع إذا كان الإسرائيلى على ثقة من أن موسى لم يعد متصلا بالقصر ، وأنه قد عرف أنه من بنى إسرائيل . وأنه ناقم على الملك والحاشية ، منتصر لقومه المضطهدين . وهذا هو الأنسب لمن فى مقام موسى — عليه السلام — فإنه بعيد الاحتمال أن تطيق نفسه البقاء فى مستنقع الشر والفساد . .

« فوكزه موسى فقضى عليه » . .

والوكز الضرب بجمع اليد . والمفهوم من التعبير أنها وكزة واحدة كان فيها حتف القبطى . مما يشى بقوة موسى وفتوته ، ويصور كذلك انفعاله وغضبه ؛ ويعبر عما كان يخالجه من الضيق بفرعون ومن يتصل به .

ولكن يبدو من السياق أنه لم يكن يقصد قتل القبطى ، ولم يعمد إلى القضاء عليه . فما كاد يراه جثة هامدة بين يديه حتى استرجع وندم على فعلته ، وعزاها إلى الشيطان وغوايته ؛ فقد كانت من الغضب ، والغضب شيطان ، أو نفخ من الشيطان :

« قال : هذا من عمل الشيطان . إنه عدو مضل مبين » . .

ثم استطرد فى فزع مما دفعه إليه الغضب ، يعترف بظلمه لنفسه أن حملها هذا الوزر ، ويتوجه إلى ربه ، طالبا مغفرته وعفوه :

« قال : رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى » . .

واستجاب الله إلى ضراعته ، وحساسيته ، واستغفاره :

« فغفر له . إنه هو الغفور الرحيم » . .

وكأنما أحس موسى بقلبه المرهف وحسه المتوفز فى حرارة توجهه إلى ربه ، أن ربه غفر له . والقلب المؤمن يحس بالاتصال والاستجابة للدعاء ، فور الدعاء ، حين يصل إرهافه وحساسيته إلى ذلك المستوى ؛ وحين تصل حرارة توجهه إلى هذا الحد . . وارتعش وجدان موسى — عليه السلام — وهو يستشعر الاستجابة من ربه ، فإذا هو يقطع على نفسه عهدا ، يعده من الوفاء بشكر النعمة التى أنعمها عليه ربه :

« قال : رب بما أنعمت علىّ فلن أكون ظهيرا للمجرمين » ..

فهو عهد مطلق ألا يقف فى صف المجرمين ظهيرا ومعينا . وهو براءة من الجريمة وأهلها فى كل صورة من صورها . حتى ولو كانت اندفاعا تحت تأثير الغيظ ، ومرارة الظلم والبغى .

ذلك بحق نعمة الله عليه فى قبول دعائه ؛ ثم نعمته فى القوة والحكمة والعلم التى آتاه الله من قبل .

وهذه الارتعاشة العنيفة ، وقبلها الاندفاع العنيف ، تصور لنا شخصية موسى ـ عليه السلام ـ شخصية انفعالية ، حارة الوجدان ، قوية الاندفاع . وسنلتقى بهذه السمة البارزة فى هذه الشخصية فى مواضع أخرى كثيرة .

بل نحن نلتقى بها فى المشهد الثانى فى هذه الحلقة مباشرة :

« فأصبح فى المدينة خائفا يترقب ؛ فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه ، قال له موسى: إنك لغوى مبين . فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما قال : ياموسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس ؟ إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض ، وما تريد أن تكون من المصلحين » ..

لقد انتهت المعركة الأولى بالقضاء على القبطى ، وندم موسى على فعلته ، وتوجهه إلى ربه ، واستغفاره إياه ، ومغفرته له ، وعهده على نفسه ألا يكون ظهيرا للمجرمين .

ومر يوم وأصبح فى المدينة خائفا من انكشاف أمره ، يترقب الافتضاح والأذى . ولفظ « يترقب » يصور هيئة القلق الذى يتلفت ويتوجس ، ويتوقع الشر فى كل لحظة . . وهى سمة الشخصية الانفعالية تبدو فى هذا الموقف كذلك . والتعبير يجسم هيئة الخوف والقلق بهذا اللفظ ، كما أنه يضخمها بكلمتى « فى المدينة » فالمدينة عادة موطن الأمن والطمأنينة ، فإذا كان خائفا يترقب فى المدينة ، فأعظم الخوف ما كان فى مأمن ومستقر !

وحالة موسى هذه تلهم أنه لم يكن فى هذا الوقت من رجال القصر . وإلا فما أرخص أن يزهق أحد رجال القصر نفسا فى عهود الظلم والطغيان ! وما كان ليخشى شيئا فضلا على أن يصبح « خائفا يترقب » لو أنه كان ما يزال فى مكانه من قلب فرعون وقصره .

وبينما هو فى هذا القلق والتوجس إذا هو يطلع : « فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه » !

إنه صاحبه الإسرائيلى الذى طلب بالأمس نصرته على القبطى . إنه هو مشتبكا مع قبطى آخر ؛ وهو يستصرخ موسى لينصره؛ ولعله يريد منه أن يقضى على عدوهما المشترك بوكزة أخرى!

ولكن صورة قتيل الأمس كانت ما تزال تخايل لموسى . وإلى جوارها ندمه واستغفاره وعهده مع ربه . ثم هذا التوجس الذى يتوقع معه فى كل لحظة أن يلحقه الأذى . فإذا هو ينفعل على هذا الذى يستصرخه ، ويصفه بالغواية والضلال :

« قال له موسى : إنك لغوى مبين »..

غوى بعراكه هـذا الذى لا ينتهى واشتباكاته التى لا تثمر إلا أن تثير الثائرة على بنى إسرائيل . وهم عن الثورة الكاملة عاجزون ، وعن الحركة المثمرة ضعفاء . فلا قيمة لمثل هذه الاشتباكات التى تضر ولا تفيد .

ولكن الذى حدث أن موسى ــ بعد ذلك ــ انفعلت نفسه بالغيظ من القبطى ، فاندفع يريد أن يقضى عليه كما قضى على الأول بالأمس ! ولهذا الاندفاع دلالته على تلك السمة الانفعالية التى أشرنا إليها ، ولكن له دلالته من جانب آخر على مدى امتلاء نفس موسى ــ عليه السلام ــ بالغيظ من الظلم ، والنقمة على البغى ، والضيق بالأذى الواقع على بنى إسرائيل ، والتوفز لرد العدوان الطاغى ، الطويل الأمد ، الذى يحتفر فى القلب البشرى مسارب من الغيظ وأخاديد .

« فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما ، قال : ياموسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس ؟ إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض ، وما تريد أن تكون من المصلحين » . .

وإنه ليقع حينما يشتد الظلم ، ويفسد المجتمع ، وتختل الموازين ، ويخيم الظلام ، أن تضيق النفس الطيبة بالظلم الذى يشكل الأوضاع والقوانين والعرف ؛ ويفسد الفطرة العامة حتى ليرى الناس الظلم فلا يثورون عليه ، ويرون البغى فلا تجيش نفوسهم لدفعه ؛ بل يقع أن يصل فساد الفطرة إلى حد إنكار الناس على المظلوم أن يدفع عن نفسه ويقاوم ؛ ويسمون من يدفع عن نفسه أو غيره « جبارا فى الأرض » كما قال القبطى لموسى . ذلك أنهم ألفوا رؤية الطغيان يبطش وهم لا يتحركون ، حتى وهموا أن هذا هو الأصل ، وأن هـذا هو الفضل ، وأن هـذا هو الأدب ، وأن هـذا هو الخلق ! وأن هذا هو الصلاح ! فإذا رأوا مظلوما يدفع الظلم عن

نفسه ، فيحطم السياج الذى أقامه الطغيان لحماية الأوضاع التى يقوم عليها . . إذا رأوا مظلوما يهب لتحطيم ذلك السياج المصطنع الباطل ولولوا ودهشوا ، وسموا هـذا المظلوم الذى يدفع الظلم سفاكا أو جبارا ، وصبوا عليه لومهم ونقمتهم . ولم ينل الظالم الطاغى من نقمتهم ولومهم إلا القليل ! ولم يجدوا للمظلوم عذرا — حتى على فرض تهوره — من ضيقه بالظلم الثقيل !

ولقد طال الظلم ببنى إسرائيل ، فضاقت به نفس موسى — عليه السلام — حتى رأيناه يندفع فى المرة الأولى ويندم ، ثم يندفع فى المرة الثانية لما ندم عليه حتى ليـكاد يفعله ، ويهم أن يبطش بالذى هو عدو له ولقومه .

لذلك لم يتخل الله عنه ، بل رعاه ، واستجاب له ، فالله العليم بالنفوس يعلم أن للطاقة البشرية حدا فى الاحتمال . وأن الظلم حين يشتد ، وتغلق أبواب النصفة ، يندفع المضطهد إلى الهجوم والاقتحام . فلم يهول فى وصف الفعلة التى فعلها موسى ، كما تهول الجماعات البشرية التى مسخ الظلم فطرتها بإزاء مثل هذا العمل الفطرى مهما تجاوز الحـدود تحت الضغط والـكظم والضيق .

وهذه هى العبرة التى تستشف من طريقة التعبير القرآنيـة عن الحادثتين وما تلاهما ، فهو لا يبرر الفعلة ولـكنه كذلك لا يضخمها . ولعل وصفها بأنها ظلم للنفس إنما نشأ من اندفاع موسى بدافع العصبية القومية . وهو المختار ليـكون رسول الله ، المصنوع على عين الله . . أو لعله كان لأنه استعجل الاشتباك بصنائع الطغيان ؟ والله يريد أن يكون الخلاص الشامل بالطريقة التى قضاها ، حيث لا تجدى تلك الاشتباكات الفردية الجانبية فى تغيير الأوضاع . كما كف الله المسلمين فى مكة عن الاشتباك حتى جاء الأوان .

ويبدو أن رائحة فاحت عن قتيل الأمس ، وأن شبهات تطايرت حول موسى . لما عرف عن كراهيته من قبل لطغيان فرعون وملئه ، إلى جانب ما يكون قد باح به صاحبه الإسرائيلى سرا بين قومه ، ثم تفشى بعد ذلك خارج بنى إسرائيل .

نرجح هذا لأن قتل موسى لأحد رجال فرعون فى معركة بينه وبين إسرائيلى فى مثل هذه الظروف يعد حدثا مريحا لنفوس بنى إسرائيـل ، يشفى بعض غيظهم ، فيشيع عادة وتتناقله الألسنة فى همس وفرح وتشف ، حتى يفشو ويتطاير هنا وهناك ، وبخاصة إذا عرف عن موسى من قبل نفرته من البغى ، وانتصاره للمظلومين .

فلما أراد موسى أن يبطش بالقبطي الثاني واجهه هذا بالتهمة ، لأنها عندئذ تجسمت له حقيقة ، وهو يراه يهم أن يبطش به ، وقال له تلك المقالة : « أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس ؟ » .

أما بقية عبارته : « إن تريد إلا أن تكون جبارا في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين » . . فتلهم أن موسى كان قد اتخذ له في الحياة مسلكا يعرف به أنه رجل صالح مصلح ، لا يحب البغي والتجبر . فهذا القبطي يذكره بهذا ويورّي به ؛ ويتهمه بأنه يخالف عما عرف عنه . يريد أن يكون جبارا لا مصلحا ، يقتل الناس بدلا من إصلاح ذات البين ، وتهدئة ثائرة الشر . وطريقة خطابه له وموضوع خطابه ، كلاهما يلهم أن موسى لم يكن إذ ذاك محسوبا من رجال فرعون . وإلا ما جرؤ المصري على خطابه بهذه اللهجة ، ولما كان هذا موضوع خطابه .

ولقد قال بعض المفسرين : إن هذا القول كان من الإسرائيلي لا من القبطي ، لأنه لما قال له موسى : « إنك لغوي مبين » ، ثم تقدم نحوه وهو غاضب ليبطش بالذي هو عدو لهما ، حسب الإسرائيلي أنه غاضب عليه هو ، وأنه يتقدم ليبطش به هو ، فقال مقالته ، وأذاع بالسر الذي يعرفه وحده . . وإنما حملهم على هذا القول أن ذلك السر كان مجهولا عند المصريين .

ولكن الأقرب أن يكون القبطي هو الذي قال ما قال . وقد علمنا شيوع ذلك السر . وأنها قد تكون فراسة أو حدسا من المصري بمساعدة الظروف المحيطة بالموضوع[١] .

والظاهر أن موسى لم يقدم بعد إذ ذكره الرجل بفعلة الأمس ، وأن الرجل أفلت لينهي إلى الملأ من قوم فرعون أن موسى هو صاحبها . فهنا فجوة في السياق بعد المشهد السابق . ثم إذا مشهد جديد . رجل يجيء إلى موسى من أقصى المدينة ، يحذره ائتمار الملأ من قوم فرعون به ، وينصح بالهرب من المدينة إبقاء على حياته :

« وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى . قال : يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك . فاخرج إني لك من الناصحين » . .

إنها يد القدرة تسفر في اللحظة المطلوبة ، لتتم مشيئتها !

---

(١) جريت على الرأي الأول في كتاب التصوير الفني في القرآن . ولكني إلى هذا الرأي الأخير أميل الآن.

لقد عرف الملأ من قوم فرعون ، وهم رجال حاشيته وحكومته والمقربون إليه أنها فعلة موسى . وما من شك أنهم أحسوا فيها بشبح الخطر . فهي فعلة طابعها الثورة والتمرد ، والانتصار لبنى إسرائيل . وإذن فهي ظاهرة خطيرة تستحق التآمر . ولو كانت جريمة قتل عادية ما استحقت أن يشتغل بها فرعون والملأ والكبراء . فانتدبت يد القدرة واحدا من الملأ . الأرجح أنه الرجل المؤمن من آل فرعون الذى يكتم إيمانه ، والذى جاء ذكره فى سورة (غافر)(١) انتدبته ليسعى إلى موسى « من أقصى المدينة » فى جد واهتمام ومسارعة ، ليبلغه قبل أن يبلغه رجال الملك : «إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ، فاخرج إنى لك من الناصحين» ..

« فخرج منها خائفا يترقب . قال : رب نجنى من القوم الظالمين » . .

ومرة أخرى نلمح السمة الواضحة فى الشخصية الانفعالية . التوفز والتلفت . ونلمح معها ، التوجه المباشر بالطلب إلى الله ، والتطلع إلى حمايته ورعايته ، والالتجاء إلى حماه فى المخافة ، وترقب الأمن عنده والنجاة : « رب نجنى من القوم الظالمين » . .

ثم يتبعه السياق خارجا من المدينة ، خائفا يترقب ، وحيدا فريدا ، غير مزود إلا بالاعتماد على مولاه ؛ والتوجه إليه طالبا عونه وهداه :

« ولما توجه تلقاء مدين قال : عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل » ..

ونلمح شخصية موسى ـ عليه السلام ـ فريدا وحيدا مطاردا فى الطرق الصحراوية فى اتجاه مدين فى جنوبى الشام وشمالى الحجاز . مسافات شاسعة ، وأبعاد مترامية ، لازاد ولا استعداد ، فقد خرج من المدينة خائفا يترقب ، وخرج منزعجا بنذارة الرجل الناصح ، لم يتلبث ، ولم يتزود ولم يتخذ دليلا . ونلمح إلى جانب هذا نفسه متوجهة إلى ربه ، مستسلمة له ، متطلعة إلى هداه: « عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل » . .

ومرة أخرى نجد موسى ـ عليه السلام ـ فى قلب المخافة ، بعد فترة من الأمن . بل من الرفاهية والطراءة والنعمى . ونجده وحيدا مجردا من قوى الأرض الظاهرة جميعا ، يطارده فرعون وجنده ، ويبحثون عنه فى كل مكان ، لينالوا منه اليوم ما لم ينالوه منه طفلا . ولكن اليد التى رعته وحمته هناك ترعاه وتحميه هنا ، ولا تسلمه لأعدائه أبدا . فها هو ذا يقطع الطريق الطويل ، ويصل إلى حيث لا تمتد إليه اليد الباطشة بالسوء :

---

(١) « وقال رجل من آل فرعون يكتم إيمانه : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله » الآية (٢٨) .

« ولما ورد ماء مدين ، وجد عليه أمة من الناس يسقون ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان . قال : ماخطبكما ؟ قالتا : لا نسقى حتى يصدر الرعاء ، وأبونا شيخ كبير . فسقى لهما ، ثم تولى إلى الظل ، فقال : رب إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير » . .

لقد انتهى به السفر الشاق الطويل إلى ماء لمدين . وصل إليه وهو مجهود مكدود . وإذا هو يطلع على مشهد لا تستريح إليه النفس ذات المروءة ، السليمة الفطرة ، كنفس موسى — عليه السلام — وجد الرعاة الرجال يوردون أنعامهم لتشرب من الماء ؛ ووجد هناك امرأتين تمنعان غنمهما عن ورود الماء . والأولى عند ذوى المروءة والفطرة السليمة ، أن تسقى المرأتان وتصدرا بأغنامها أولا ، وأن يفسح لهما الرجال ويعينوهما .

ولم يقعد موسى الهارب المطارد ، المسافر المكدود ، ليستريح ، وهو يشهد هذا المنظر المنكر المخالف للمعروف . بل تقدم للمرأتين يسألهما عن أمرهما الغريب :

« قال : ماخطبكما ؟ » .

« قالتا : لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير » . .

فأطلعتاه على سبب انزوائهما وتأخرهما وذودهما لغنمهما عن الورود . إنه الضعف ، فهما امرأتان وهؤلاء الرعاة رجال . وأبوهما شيخ كبير لا يقدر على الرعى ومجالدة الرجال ! وثارت نخوة موسى — عليه السلام — وفطرته السليمة . فتقدم لإقرار الأمر فى نصابه . تقدم ليسقى للمرأتين أولا ، كما ينبغى أن يفعل الرجال ذوو الشهامة . وهو غريب فى أرض لا يعرفها ، ولا سند له فيها ولا ظهير . وهو مكدود قادم من سفر طويل بلا زاد ولا استعداد . وهو مطارد ، من خلفه أعداء لا يرحمون . ولكن هذا كله لا يقعد به عن تلبية دواعى المروءة والنجدة والمعروف ، وإقرار الحق الطبيعى الذى تعرفه النفوس :

« فسقى لهما » . .

مما يشهد بنبل هذه النفس التى صنعت على عين الله . كما يشى بقوته التى ترهب حتى وهو فى إعياء السفر الطويل . ولعلها قوة نفسه التى أوقعت فى قلوب الرعاة رهبته أكثر من قوة جسمه . فإنما يتأثر الناس أكثر بقوة الأرواح والقلوب .

« ثم تولى إلى الظل » . .

مما يشير إلى أن الأوان كان أوان قيظ وحر ، وأن السفرة كانت فى ذلك القيظ والحر .

« فقال : رب إنى لمــا أنزلت إلى من خير فقير » . .

إنه يأوى إلى الظل المادى البليل بجسمه ، ويأوى إلى الظل العريض الممدود . ظل الله الـكريم المنان . بروحه وقلبه : « رب . إنى لما أنزلت إلى من خير فقير » . رب إنى فى الهاجرة . رب إنى فقير . رب إنى وحيد . رب إنى ضعيف . رب إنى إلى فضلك ومنك وكرمك فقير محووج .

ونسمع من خلال التعبير رفرفة هذا القلب والتجاه إلى الحمى الآمن ، والركن الركين ، والظل الظليل . نسمع المناجاة القريبة والهمس الموحى ، والانعطاف الرفيق ، والاتصال العميق : « رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير » . .

وما نكاد نستغرق مع موسى ــ عليه السلام ــ فى مشهد المناجاة حتى يعجل السياق بمشهد الفرج ، معقبا فى التعبير بالفاء ، كأنما السماء تسارع فتستجيب للقلب الضارع الغريب .

« فجاءته إحــداهما تمشى على استحيــاء . قالت : إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ماسقيت لنا » . .

يافرج الله ! وياالقربه وياالنداه ! إنها دعوة الشيخ الـكبير استجابة من السماء لدعوة موسى الفقير . دعوة للإيواء والـكرامة والجزاء على الإحسان . دعوة تحملها : « إحداهما » وقد جاءته « تمشى على استحياء » مشية الفتاة الطاهرة الفاضلة العفيفة النظيفة حين تلقى الرجال . « على استحياء » . فى غير ماتبذل ولا تبرج ولا تبجح ولا إغواء . جاءته لتنهى إليه دعوة فى أقصر لفظ وأخصره وأدله ، يحكيه القرآن بقوله : « إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ماسقيت لنا » . فمع الحياء الإبانة والدقة والوضوح ؛ لا التلجلج والتعثر والربكة . وذلك كذلك من إيحــاء الفطرة النظيفة السليمة المستقيمة . فالفتاة القويمة تستحى بفطرتها عند لقاء الرجال والحديث معهم ، ولـكنها لثقتها بطهارتها واستقامتها لاتضطرب . الاضطراب الذى يطمع ويغرى ويهيج ؛ إنما تتحدث فى وضوح بالقدر المطلوب ، ولا تزيد .

وينهى السياق هذا المشهد فلا يزيد عليه ، ولا يفسح المجال لغير الدعوة من الفتاة ، والاستجابة من موسى . ثم إذا مشهد اللقاء بينه وبين الشيخ الـكبير . الذى لم ينص على اسمه.

وقيل : إنه ابن أخى شعيب النبي المعروف . وإن اسمه يثرون (١) .

« فلما جاءه وقص عليه القصص ، قال : لا تخف . نجوت من القوم الظالمين » ..

فقد كان موسى فى حاجة إلى الأمن ؛ كما كان فى حاجة إلى الطعام والشراب . ولكن حاجة نفسه إلى الأمن كانت أشد من حاجة جسمه إلى الزاد . ومن ثم أبرز السياق فى مشهد اللقاء قول الشيخ الوقور : « لا تخف » فجعلها أول لفظ يعقب به على قصصه ليلقى فى قلبه الطمأنينة ، ويشعره بالأمان . ثم بين وعلل : « نجوت من القوم الظالمين » فلا سلطان لهم على مدين ، ولا يصلون لمن فيها بأذى ولا ضرار .

ثم نسمع فى المشهد صوت الأنوثة المستقيمة السليمة :

« قالت إحداهما : يا أبت استأجره . إن خير من استأجرت القوى الأمين » .

إنها وأختها تعانيان من رعى الغنم ، ومن مزاحمة الرجال على الماء ، ومن الاحتكاك الذى لابد منه للمرأة التى تزاول أعمال الرجال . وهى تتأذى وأختها من هذا كله ؛ وتريد أن تكون امرأة تأوى إلى بيت؛ امرأة عفيفة مستورة لا تحتك بالرجال الغرباء فى المرعى والمسقى. والمرأة العفيفة الروح ، النظيفة القلب ، السليمة الفطرة ، لا تستريح لمزاحمة الرجال ، ولا للتبذل الناشىء من هذه المزاحمة .

وها هوذا شاب غريب طريد وهو فى الوقت ذاته قوى أمين . رأت من قوته ما يهابه الرعاء فيفسحون له الطريق ويسقى لهما . وهو غريب . والغريب ضعيف مهما اشتد . ورأت من أمانته ما يجعله عف اللسان والنظر حين توجهت لدعوته . فهى تشير على أبيها باستئجاره ليكفيها وأختها مؤنة العمل والاحتكاك والتبذل . وهو قوى على العمل ، أمين على المال . فالأمين على العرض هكذا أمين على ما سواه . وهى لا تتلعثم فى هذه الإشارة ولا تضطرب ،

---

(١) سبق أن قلت مرة فى الظلال : إن هذا الرجل هو شعيب . وقلت مرة : إنه قد يكون النبى شعيبا أو لا يكون .. وأنا الآن أميل إلى ترجيح أنه ليس هو وإنما هو شيخ آخر من مدين . والذى يحمل على هذا الترجيح أن هذا الرجل شيخ كبير . وشعيب شهد مهلك قومه ، المكذبين له ، ولم يبق معه إلا المؤمنون به . فلو كان هو شعيب ـ النبى ـ بين بقية قومه المؤمنين ، ماسقوا قبل بنتى نبيهم الشيخ الكبير . فليس هذا سلوك قوم مؤمنين ، ولامعاملتهم لنبيهم وبناته من أول جيل !

يضاف إلى هذا أن القرآن لم يذكر شيئا عن تعليمه لموسى صهره . ولو كان شعيبا النبى لسمعنا صوت النبوة فى شىء من هذا مع موسى وقد عاش معه عشر سنوات .

ولا تخشى سوء الظن والتهمة . فهى بريئة النفس ، نظيفة الحس ؛ ومن ثم لا تخشى شيئا ، ولا تتمتم ولا تجمجم وهى تعرض اقتراحها على أبيها .

ولا حاجة لـكل ما رواه المفسرون من دلائل قوة موسى . كرفع الحجر الذى يغطى البئر وكان لا يرفعه — فيما قالوا — إلا عشرون أو أربعون أو أكثر أو أقل . فالبئر لم يكن مغطى ، إنما كان الرعاء يسقون فنحاهم وسقى للمرأتين ، أو سقى لهما مع الرعاء .

ولا حاجة كذلك لما رووه عن دلائل أمانته من قوله للفتاة : امشى خلفى ودليني على الطريق خوف أن يراها . أو أنه قال لها هذا بعد أن مشى خلفها فرفع الهواء ثوبها عن كعبها .. فهذ كله تـكلف لا داعى له ، ودفع لريبة لا وجود لها . وموسى — عليه السلام — عفيف النظر نظيف الحس ، وهى كذلك ، والعفة والأمانة لاتحتاجان لـكل هـذا التـكلف عنـد لقاء رجل وامرأة . فالعفة تنضح فى التصرف العادى البسيط بلا تـكلف ولا اصطناع !

واستجاب الشيخ لاقتراح ابنته . ولعله أحس من نفس الفتاة ونفس موسى ثقة متبادلة ، وميلا فطريا سليما ، صالحا لبناء أسرة . والقوة والأمانة حين تجتمعان فى رجل لا شك تهفو إليه طبيعة الفتاة السليمة التى لم تفسد ولم تلوث ولم تنحرف عن فطرة الله . فجمع الرجل بين الغايتين وهو يعرض على موسى أن يزوجه إحدى ابنتيه فى مقابل أن يخدمه ويرعى ما شيته ثمانى سنين . فإن زادها إلى عشر فهو تفضل منه لا يلزم به .

« قال : إنى أريد أن أنـكحك إحدى ابنتى هاتين ، على أن تأجرنى ثمانى حجج . فإن أتممت عشرا فمن عندك . وما أريد أن أشق عليك . ستجدنى إن شاء الله من الصالحين »

وهكذا فى بساطة وصراحة عرض الرجل إحدى ابنتيه من غير تحديد — ولعله كان يشعر كما أسلفنا — أنها محددة ، وهى التى وقع التجاوب والثقة بين قلبها وقلب الفتى . عرضها فى غير تحرج ولا التواء . فهو يعرض نـكاحا لا يخجل منه . يعرض بناء أسرة وإقامة بيت وليس فى هذا ما يخجل ، ولا ما يدعو إلى التحرج والتردد والإيماء من بعيد ، والتصنع والتـكلف مما يشاهد فى البيئة التى تنحرف عن سواء الفطرة ، وتخضع لتقاليد مصطنعة باطلة سخيفة ، تمنع الوالد أو ولى الأمر من التقدم لمن يرتضى خلقه ودينه وكفايته لابنته أو أخته أو قريبته ؛ وتحتم أن يكون الزوج أو وليه أو وكيله هو الذى يتقدم ، أو لايليق أن يجىء العرض من الجانب الذى فيه المرأة ! ومن مفارقات مثل هذ البيئة المنحرفة أن الفتيان والفتيات يلتقون ويتحدثون

ويختلطون ويتكشفون بعضهم لبعض فى غير ما خطبة ولا نية نكاح . فأما حين تعرض الخطبة أو يذكر النكاح ، فيهبط الخجل المصطنع ، وتقوم الحوائل المتكلفة وتمتنع المصارحة والبساطة والإبانة !

ولقد كان الآباء يعرضون بناتهم على الرجال على عهد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بل كانت النساء تعرض نفسها على النبي — صلى الله عليه وسلم — أو من يرغب فى تزويجهن منهم . كان يتم هذا فى صراحة ونظافة وأدب جميل ، لا تخدش معه كرامة ولا حياء .. عرض عمر — رضى الله عنه — ابنته حفصة على أبى بكر فسكت وعلى عثمان فاعتذر ، فلما أخبر النبي — صلى الله عليه وسلم — بهذا طيب خاطره ، عسى أن يجعل الله لها نصيبا فيمن هو خير منهما . ثم تزوجها — صلى الله عليه وسلم — وعرضت امرأة نفسها على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فاعتذر لها . فألقت إليه ولاية أمرها يزوجها ممن يشاء . فزوجها رجلا لا يملك إلا سورتين من القرآن ، علمها إياهما فكان هذا صداقها .

وبمثل هذه البساطة والوضاءة سار المجتمع الإسلامى يبنى بيوته ويقيم كيانه . فى غير ماتلعثم ولا جمجمة ولا تصنع ولا التواء .

وهكذا صنع الشيخ الكبير — صاحب موسى — فعرض على موسى ذلك العرض واعدا إياه ألا يشق عليه ولا يتعبه فى العمل ؛ راجيا بمشيئة الله أن يجده موسى من الصالحين فى معاملته ووفائه . وهو أدب جميل فى التحدث عن النفس وفى جانب الله . فهو لا يزكى نفسه ، ولا يجزم بأنه من الصالحين . ولكن يرجو أن يكون كذلك ، ويكل الأمر فى هذا لمشيئة الله .

وقبل موسى العرض وأمضى العقد ؛ فى وضوح كذلك ودقة ، وأشهد الله :

« قال : ذلك بينى وبينك . أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على . والله على ما نقول وكيل » .

إن مواضع العقد وشروط التعاقد لا مجال للغموض فيها ، ولا اللعثمة ، ولا الحياء . ومن ثم يقر موسى العرض ، ويبرم العقد ، على ما عرض الشيخ من الشروط . ثم يقرر هذا ويوضحه : « أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على » . . سواء قضيت ثمانى سنوات أو أتممت عشرا ، فلا عدوان فى تكاليف العمل ، ولا عدوان فى تحتيم العشر ؛ فالزيادة على الثمانية

اختيار . . « والله على ما نقول وكيل » . فهو الشهيد الموكل بالعدل بين المتعاقدين . وكفى بالله وكيلا .

بين موسى ـ عليه السلام ـ هذا البيان تمشيا مع استقامة فطرته ، ووضوح شخصيته ، وتوفية بواجب المتعاقدين فى الدقة والوضوح والبيان . وهو ينوى أن يوفى بأفضل الأجلين كما فعل . فقد روى أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخبر أنه : « قضى أكثرهما وأطيبها » (١)

وهكذا اطمأن بموسى ـ عليه السلام ـ المقام فى بيت حميه ؛ وقد أمن من فرعون وكيده. ولحكمة مقدرة فى علم الله كان هذا الذى كان . . فلندع الآن هذه الحلقة تمضى فى طريقها حتى تنقضى . فقد سكت السياق فيها عند هذا الحد وأسدل الستار . . .

* * *

وتمضى السنوات العشر التى تعاقد عليها موسى ـ عليه السلام ـ لا يذكر عنها شىء فى سياق السورة ، ثم تعرض الحلقة الثالثة بعد ما قضى موسى الأجل وسار بأهله ، عائدا من مدين إلى مصر ، يسلك إليها الطريق الذى سلكه منذ عشر سنوات وحيدا طريداً . ولكن جو العودة غير جو الرحلة الأولى . . إنه عائد ليتلقى فى الطريق ما لم يخطر له على بال . ليناديه ربه ويكلمه ، ويكلفه النهوض بالمهمة التى من أجلها وقاه ورعاه ، وعلمه ورباه . مهمة الرسالة إلى فرعون وملئه ،ليطلق له بنىإسرائيل يعبدون ربهم لا يشركون به أحدا ؛ ويرثون الأرض التى وعدهم ليمكن لهم فيها ؛ ثم ليكون لفرعون وهامان وجنودهما عدوا وحزنا ، ولتكون نهايتهم على يديه كما وعد الله حقا :

« فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا ، قال لأهله : امكثوا، إنى آنست نارا ، لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون . فلما أتاها نودى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة : أن ياموسى إنى أنا الله رب العالمين؛ وأن ألق عصاك ، فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب ، ياموسى أقبل ولا تخف ، إنك من الآمنين . اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ، واضمم إليك جناحك

---

(١) أخرجه البخارى

من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه ، إنهم كانوا قوما فاسقين . قال : رب إنى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون . وأخى هارون هو أفصح منى لسانا ، فأرسله معى ردءا يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون . قل : سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما . بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون » ..

وقبل أن نستعرض هذين المشهدين فى هذه الحلقة نقف قليلا أمام تدبير الله لموسى — عليه السلام — فى هذه السنوات العشر ، وفى هذه الرحلة ذهابا وجيئة ، فى هذا الطريق ..

لقد نقلت يد القدرة خطى موسى — عليه السلام — خطوة خطوة . منذ أن كان رضيعا فى المهد حتى هذه الحلقة . ألقت به فى اليم ليلتقطه آل فرعون . وألقت عليه المحبة فى قلب امرأته لينشأ فى كنف عدوه . ودخلت به المدينة على حين غفلة من أهلها ليقتل منهم نفساً . وأرسلت إليه بالرجل المؤمن من آل فرعون ليحذره وينصحه بالخروج منها . وصاحبته فى الطريق الصحراوى من مصر إلى مدين وهو وحيد مطارد على غير زاد ولا استعداد . وجمعته بالشيخ الكبير ليأجره هذه السنوات العشر . ثم ليعود بعدها فيتلقى التكليف . .

هـذا خط طويل من الرعاية والتوجيه ، ومن التلقى والتجريب ، قبل النداء وقبل التكليف . . تجربة الرعاية والحب والتدليل . وتجربة الاندفاع تحت ضغط الغيظ الحبيس ، وتجربة الندم والتحرج والاستغفار . وتجربة الخوف والمطاردة والفزع . وتجربة الغربة والوحدة والجوع . وتجربة الخدمة ورعى الغنم بعد حياة القصور . وما يتخلل هـذه التجارب الضخمة من شتى التجارب الصغيرة ، والمشاعر المتباينة ، والخوالج والخواطر ، والإدراك والمعرفة . . إلى جانب ما آتاه الله حين بلغ أشده من العلم والحكمة .

إن الرسالة تكليف ضخم شاق متعدد الجوانب والتبعات ؛ يحتاج صاحبه إلى زاد ضخم من التجارب والإدراك والمعرفة والتذوق فى واقع الحياة العملى ، إلى جانب هبة الله اللدنية ، ووحيه وتوجيهه للقلب والضمير .

ورسالة موسى بالذات قد تكون أضخم تكليف تلقاه بشر — عدا رسالة محمد — صلى الله عليه وسلم — فهو مرسل إلى فرعون الطاغية المتجبر ، أعتى ملوك الأرض فى زمانه ، وأقدمهم عرشا ، وأثبتهم ملكا ، وأعرقهم حضارة ، وأشدهم تعبدا للخلق واستعلاء فى الأرض .

وهو مرسل لاستنقاذ قوم قد شربوا من كؤوس الذل حتى استمرأوا مذاقه ، فمردوا

عليه واستكانوا دهرا طويلا . والذل يفسد الفطرة البشرية حتى تأسن وتتعفن ؛ ويذهب بما فيها من الخير والجمال والتطلع ومن الاشمئزاز من العفن والنتن والرجس والدنس . فاستنقاذ قوم كهؤلاء عمل شاق عسير .

وهو مرسل إلى قوم لهم عقيدة قديمة ؛ انحرفوا عنها ، وفسدت صورتها فى قلوبهم . فلا هى قلوب خامة تتقبل العقيدة الجديدة ببراءة وسلامة ؛ ولا هى باقية على عقيدتها القديمة . ومعالجة مثل هذه القلوب شاقة عسيرة . والالتواءات فيها والرواسب والانحرافات تزيد المهمة مشقة وعسرا .

وهو فى اختصار مرسل لإعادة بناء أمة ، بل لإنشائها من الأساس . فلأول مرة يصبح بنو إسرائيل شعبا مستقلا ، له حياة خاصة ، تحكمها رسالة . وإنشاء الأمم عمل ضخم شاق عسير .

ولعله لهذا المعنى كانت عناية القرآن الكريم بهذه القصة ، فهى نموذج كامل لبناء أمة على أساس دعوة ، ومايعترض هذا العمل من عقبات خارجية وداخلية . ومايعتوره من انحرافات وانطباعات وتجارب وعراقيل .

فأما تجربة السنوات العشر فقد جاءت لتفصل بين حياة القصور التى نشأ فيها موسى — عليه السلام — وحياة الجهد الشاق فى الدعوة وتكاليفها العسيرة .

إن لحياة القصور جوا خاصا ، وتقاليد خاصة ، وظلالا خاصة تلقيها على النفس وتطبعها بها مهما تكن هذه النفس من المعرفة والإدراك والشفافية . والرسالة معاناة لجماهير من الناس فيهم الغنى والفقير ، والواجد والمحروم ، وفيهم النظيف والوسخ ، والمهذب والخشن ؛ وفيهم الطيب والخبيث والخير والشرير . وفيهم القوى والضعيف ، والصابروالجزوع .. وفيهموفيهم .. وللفقراء عادات خاصة فى أكلهم وشربهم ولبسهم ومشيهم ، وطريقة فهمهم للأمور ، وطريقة تصورهم للحياة ، وطريقة حديثهم وحركتهم ، وطريقة تعبيرهم عن مشاعرهم . . وهذه العادات تثقل على نفوس المنعمين ومشاعر الذين تربوا فى القصور ؛ ولا يكادون يطيقون رؤيتها فضلا على معاناتها وعلاجها ، مهما تكن قلوب هؤلاء الفقراء عامرة بالخير مستعدة للصلاح ، لأن مظهرهم وطبيعة عاداتهم لا تفسح لهم فى قلوب أهل القصور !

وللرسالة تكاليفها من المشقة والتجرد والشظف أحيانا . . وقلوب أهل القصور ـ مهما تكن مستعدة للتضحية بما اعتادته من الخفض والدعة والمتعة ـ لا تصبر طويلا على الخشونة والحرمان والمشقة عند معاناتها فى واقع الحياة .

فشاءت القدرة التى تنقل خطى موسى ـ عليه السلام ـ أن تخفض مما اعتادته نفسه من تلك الحياة ؛ وأن تزج به فى مجتمع الرعاة ، وأن تجعله يستشعر النعمة فى أن يكون راعى غنم يجد القوت والمأوى ، بعد الخوف والمطاردة والمشقة والجوع . وأن ينزع من حسه روح الاشمئزاز من الفقر والفقراء ، وروح التأفف من عاداتهم وأخلاقهم وخشونتهم وسذاجتهم ؛ وروح الاستعلاء على جهلهم وفقرهم ورثاثة هيئتهم ومجموعة عاداتهم وتقاليدهم . وأن تلقى به فى خضم الحياة كبيرا بعد ما ألقت به فى خضم الأمواج صغيرا ، ليمرن على تكاليف دعوته قبل أن يتلقاها . .

فلما أن استكملت نفس موسى ـ عليه السلام ـ تجاربها ، وأكملت مرانتها ودربتها ، بهذه التجربة الأخيرة فى دار الغربة ، قادت يد القدرة خطاه مرة أخرى عائدة به إلى مهبط رأسه ، ومقر أهله وقومه ، ومجال رسالته وعمله ، سالكة به الطريق التى سلكها أول مرة وحيدا طريدا خائفا يتلفت . فما هذه الجيئة والذهوب فى ذات الطريق ؟ إنها التدريب والمرانة والخبرة حتى بشعاب الطريق . الطريق الذى سيقود فيه موسى خطى قومه بأمر ربه ، كى يستكمل صفات الرائد وخبرته ، حتى لا يعتمد على غيره ولو فى ريادة الطريق . فقومه كانوا فى حاجة إلى رائد يقودهم فى الصغيرة والكبيرة ، بعد أن أفسدهم الذل والقسوة والتسخير ؛ حتى فقدوا القدرة على التدبير والتفكير .

وهكذا ندرك كيف صنع موسى على عين الله ، وكيف أعدته القدرة لتلقى التكليف . فلنتبع خطى موسى تنقلها يد القدرة الكبرى ، فى طريقه إلى هذا التكليف .

***

« فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا . قال لأهله : امكثوا إنى آنست نارا ، لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون » . .

ترى أى خاطر راود موسى ، فعاد به إلى مصر ، بعد انقضاء الأجل ، وقد خرج منها

خائفا يترقب ؟ وأنساه الخطر الذى ينتظره بها ، وقد قتل فيها نفسا ؟ وهناك فرعون الذى كان يتآمر مع الملأ من قومه ليقتلوه ؟

إنها اليد التى تنقل خطاه كلها ، لعلها قادته هذه المرة بالميل الفطرى إلى الأهل والعشيرة ، وإلى الوطن والبيئة ، وأنسته الخطر الذى خرج هاربا منه وحيدا طريدا . ليؤدى المهمة التى خلق لها ورعى منذ اللحظة الأولى .

على أية حال ها هوذا عائد فى طريقه ، ومعه أهله ، والوقت ليل ، والجو ظلمة ؛ وقد ضل الطريق ، والليلة شاتية ، كما يبدو من أنسه بالنار التى شاهدها ، ليأتى منها بخبر أو جذوة .. هذا هو المشهد الأول فى هذه الحلقة .

فأما المشهد الثانى فهو المفاجأة الكبرى :

« فلما أتاها نودى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة » ..

فها هو ذا يقصد إلى النار التى آنسها ، وها هوذا فى شاطىء الوادى إلى جوار جبل الطور ، الوادى إلى يمينه ، « فى البقعة المباركة » .. المباركة ، منذ هذه اللحظة .. ثم هذا هو الكون كله تتجاوب جنباته بالنداء العلوى الآتى لموسى « من الشجرة » ولعلها كانت الوحيدة فى هذا المكان :

« أن ياموسى إنى أنا الله رب العالمين » :

وتلقى موسى النداء المباشر . تلقاه وحيدا فى ذلك الوادى العميق ، فى ذلك الليل الساكن . تلقاه يتجاوب به الكون من حوله ، وتمتلىء به السماوات والأرضون . تلقاه لا ندرى كيف وبأية جارحة وعن أى طريق . تلقاه ملء الكون من حوله ، وملء كيانه كله . تلقاه وأطاق تلقيه لأنه صنع على عين الله حتى تهيأ لهذه اللحظة الكبرى .

وسجل ضمير الوجود ذلك النداء العلوى ؛ وبوركت البقعة التى تجلى عليها ذو الجلال ؛ وتميز الوادى الذى كرم بهذا التجلى ، ووقف موسى فى أكرم موقف يلقاه إنسان .

واستطرد النداء العلوى يلقى إلى عبده التكليف :

« وأن ألق عصاك » ..

وألقى موسى عصاه إطاعة لأمر مولاه ؛ ولكن ماذا ؟ إنها لم تعد عصاه التى صاحبها طويلا ، والتى يعرفها معرفة اليقين . إنها حية تدب فى سرعة ، وتتحرك فى خفة ، وتتلوى كصغار الحيات وهى حية كبرى :

« فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب » ..

إنها المفاجأة التى لم يستعد لها ؛ مع الطبيعة الانفعالية ، التى تأخذها الوهلة الأولى .. « ولى مدبرا ولم يعقب » ولم يفكر فى العودة إليها ليتبين ماذا بها ؛ وليتأمل هــذه العجيبة الضخمة . وهذه هى سمة الانفعاليين البارزة تتجلى فى موعدها !

ثم يستمع إلى ربه الأعلى :

« ياموسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين » . .

إن الخوف والأمن يتعاقبان سريعا على هذه النفس ، ويتعاورانها فى مراحل حياتها جميعا . إنه جو هذه الحياة من بدئها إلى نهايتها ؛ و إن هذا الانفعال الدائم لمقصود فى تلك النفس ، مقدر فى هذه الحياة ، لأنه الصفحة المقابلة لتبلد بنى إسرائيل ، ومرودهم على الاستكانة ذلك الأمد الطويل . وهو تدبير القدرة وتقديرها العميق الدقيق .

« أقبل ولا تخف إنك من الآمنين » . .

وكيف لا يأمن من تنقل يد القدرة خطاه ، ومن ترعاه عين الله ؟

« اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء » ..

وأطاع موسى الأمر ، وأدخل يده فى فتحة ثوبه عند صــدره ثم أخرجها . فإذا هى المفاجأة الثانية فى اللحظة الواحــدة . إنها بيضاء لامعة مشعة من غير مرض ، وقد عهدها أدماء تضرب إلى السمرة . إنها إشارة إلى إشراق الحق ووضوح الآية ونصاعة الدليل .

وأدركت موسى طبيعته . فإذا هو يرتجف من رهبة الموقف وخوارقه المتتابعة . ومرة أخرى تدركه الرعاية الحانية بتوجيه يرده إلى السكينة . ذلك أن يضم يده على قلبه ، فتخفض من دقاته ، وتطامن من خفقاته :

« واضمم إليك جناحك من الرهب » ..

وكأنما يده جناح يقبضه على صدره ، كما يطمئن الطائر فيطبق جناحه . والرفرفة أشبه بالخفقان ، والقبض أشبه بالاطمئنان . والتعبير يرسم هذه الصورة على طريقة القرآن .

والآن وقد تلقى موسى ما تلقى، وقد شاهد كذلك ماشاهد ، وقد رأى الآيتين الخارقتين ، وقد ارتجف لهما ثم اطمأن . . الآن يعرف ماوراء الآيات ، والآن يتلقى التكليف الذى كان يعد من طفولته الباكرة ليتلقاه . .

« فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه . إنهم كانوا قوما فاسقين » . .

وإذن فهى الرسالة إلى فرعون وملئه . وإذن فهو الوعد الذى تلقته أم موسى وهو طفل رضيع : « إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين » . . الوعد اليقين الذى انقضت عليه السنون . وعد الله لا يخلف الله وعده وهو أصدق القائلين .

هنا يتذكر موسى أنه قتل منهم نفساً ، وأنه خرج من بينهم طريدا ، وأنهم تآمروا على قتله فهرب منهم بعيدا . وهو فى حضرة ربه . وربه يكرمه بلقائه ، ويكرمه بنجائه ، ويكرمه بآياته ، ويكرمه برعايته ، فماله لا يحتاط لدعوته خيفة أن يقتل فتنقطع رسالته :

« قال : رب إنى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون » ..

يقولها لا ليعتذر ، ولا ليتقاعس ، ولا لينكص ؛ ولكن ليحتاط للدعوة ، ويطمئن إلى مضيها فى طريقها ، لو لقى مايخاف . وهو الحرص اللائق بموسى القوى الأمين :

« وأخى هارون هو أفصح منى لسانا ، فأرسله معى ردءاً يصدقنى ، إنى أخاف أن يكذبون » .

إن هارون أفصح لسانا فهو أقدر على المنافحة عن الدعوة . وهو ردء له معين ، يقوى دعواه ، ويخلفه إن قتلوه .

وهنا يتلقى موسى الاستجابة والتطمين :

« قال : سنشد عضدك بأخيك ، ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما . بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون » ..

لقد استجاب ربه رجاءه ؛ وشد عضده بأخيه . وزاده على مارجاه البشارة والتطمين : « ونجعل لكما سلطانا » .. فهما لن يذهبا مجردين إلى فرعون الجبار . إنما يذهبان إليه مزودين بسلطان لا يقف له فى الأرض سلطان ؛ ولا تنالهما معه كف طاغية ولا جبار : « فلا يصلون إليكما » .. وحولكما من سلطان الله سياج ، ولكما منه حصن وملاذ .

ولا تقف البشارة عند هذا الحد . ولكنها الغلبة للحق . الغلبة لآيات الله التى يجبهان بها الطغاة . فإذا هى وحدها السلاح والقوة ، وأداة النصر والغلبة : « بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون » .

فالقدرة تتجلى سافرة على مسرح الحوادث ؛ وتؤدى دورها مكشوفا بلا ستار من قوى الأرض ، لتكون الغلبة بغير الأسباب التى تعارف عليها الناس ، فى دنيا الناس ، وليقوم فى النفوس ميزان جديد للقوى والقيم . إيمان وثقة بالله ، وما بعد ذلك فعلى الله .

* * *

وينتهى هذا المشهد الرائع الجليل ؛ ويطوى الزمان ويطوى المكان ، فإذا موسى وهارون فى مواجهة فرعون ، بآيات الله البينات ؛ وإذا الحوار بين الهدى والضلال ؛ وإذا النهاية الحاسمة فى هذه الدنيا بالغرق ، وفى الحياة الأخرى باللعنة . فى سرعة واختصار :

« فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا : ماهذا إلا سحر مفترى ، وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين . وقال موسى : ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ، ومن تكون له عاقبة الدار ، إنه لا يفلح الظالمون . وقال فرعون : ياأيها الملأ ماعلمت لكم من إله غيرى فأوقدلى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى ، وإنى لأظنه من الكاذبين . واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق ، وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون . فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم . فانظر كيف كان عاقبة الظالمين . وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ، ويوم القيامة لا ينصرون ؛ وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ، ويوم القيامة هم من المقبوحين » ..

إن السياق هنا يعجل بالضربة القاضية ؛ ويختصر حلقة السحرة التى تذكر فى سور أخرى بتفصيل أو إجمال . يختصرها ليصل من التكذيب مباشرة إلى الإهلاك . ثم لا يقف عند الأخذ فى الدنيا ، بل يتابع الرحلة إلى الآخرة .. وهذا الإسراع فى هذه الحلقة مقصود ، متناسق مع اتجاه القصة فى السورة : وهو تدخل يد القدرة بلا ستار من البشر ، فما إن يواجه موسى فرعون حتى يعجل الله بالعاقبة ، وتضرب يد القدرة ضربتها الحاسمة ، بلا تفصيل فى المواجهة أو تطويل .

« فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا : ماهذا إلا سحر مفترى ، وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين » ...

وكأنما هى ذات القولة التى يقولها المشركون لمحمد — صلى الله عليه وسلم — فى مكة يومذاك .. « ماهذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين » .. فهى المماراة فى الحق الواضح الذى لا يمكن دفعه . المماراة المكرورة حينما واجه الحق الباطل فأعيا الباطل الجواب .

إنهم يدعون أنه سحر ، ولا يجدون لهم حجة إلا أنه جديد عليهم ، لم يسمعوا به فى آبائهم الأولين !

وهم لا يناقشون بحجة ، ولا يدلون ببرهان ، إنما يلقون بهذا القول الغامض الذى لا يحق حقاً ولا يبطل باطلا ولا يدفع دعوى . فأما موسى — عليه السلام — فيحيل الأمر بينه وبينهم إلى الله . فما أدلوا بحجة ليناقشها ، ولا طلبوا دليلا فيعطيهم ، إنما هم يمارون كما يمارى أصحاب الباطل فى كل مكان وفى كل زمان ، فالاختصار أولى والإعراض أكرم ، وترك الأمر بينه وبينهم إلى الله :

« وقال موسى : ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار ، إنه لا يفلح الظالمون » .

وهو رد مؤدب مهذب ، يلمح فيه ولا يصرح . وفى الوقت ذاته ناصع واضح ، ملىء بالثقة والطمأنينة إلى عاقبة المواجهة بين الحق والباطل . فربه أعلم بصدقه وهداه ، وعاقبة الدار مكفولة لمن جاء بالهدى ، والظالمون فى النهاية لا يفلحون . سنة الله التى لا تتبدل . وإن بدت ظواهر الأمور أحيانا فى غير هذا الاتجاه . سنة الله يواجه بها موسى قومه ويواجه بها كل نبى قومه .

وكان رد فرعون على هذا الأدب وهذه الثقة ادعاء وتطاولا ، ولعبا ومداورة ، وتهكما وسخرية :

« وقال فرعون : ياأيها الملأ ماعلمت لكم من إله غيرى . فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى ، وإنى لأظنه من الكاذبين » . .

ياأيها الملأ ماعلمت لكم من إله غيرى . . كلمة فاجرة كافرة ، يتلقاها الملأ بالإقرار والتسليم . ويعتمد فيها فرعون على الأساطير التى كانت سائدة فى مصر من نسب الملوك للآلهة . ثم على القهر ، الذى لا يدع لرأس أن يفكر ، ولا للسان أن يعبر . وهم يرونه بشرا مثلهم يحيا ويموت ، ولكنه يقول لهم هذه الكلمة فيسمعونها دون اعتراض ولا تعقيب !

ثم يتظاهر بالجد فى معرفة الحقيقة ، والبحث عن إله موسى ، وهو يلهو ويسخر : « فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى » . . فى السماء كما يقول ! وبلهجة

التهكم ذاتها يتظاهر بأنه شاك فى صدق موسى ، ولكنه مع هذا الشك يبحث وينقب ليصل إلى الحقيقة : « وإنى لأظنه من الكاذبين » !

وفى هـذا الموضع كانت حلقة المباراة مع السحرة . وهى محذوفة هنا للتعجيل بالنهاية :

« واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق ، وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون » . .

فلما توهموا عدم الرجعة إلى الله استكبروا فى الأرض بغير الحق ، وكذبوا بالآيات والنذر (التى جاء ذكرها فى مطلع هذه الحلقة ، ووردت بالتفصيل فى سور أخرى) .

« فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم » .

هكذا فى اختصار حاسم . أخذ شديد ونبذ فى اليم . نبذ كما تحذف الحصاة أو كما يرمى بالحجر . اليم الذى ألقى فى مثله موسى الطفل الرضيع ، فكان مأمناً وملجأ . وهو ذاته الذى ينبذ فيه فرعون الجبار وجنوده فإذا هو مخافة ومهلكة . فالأمن إنما يكون فى جناب الله ، والمخافة إنما تكون فى البعد عن ذلك الجناب .

« فانظر كيف كان عاقبة الظالمين » . .

فهى عاقبة مشهودة معروضة للعالمين . وفيها عبرة للمعتبرين ، ونذير للمكذبين . وفيها يد القدرة تعصف بالطغاة والمتجبرين فى مثل لمح البصر ، وفى أقل من نصف سطر !

وفى لمحة أخرى يجتاز الحياة الدنيا ؛ ويقف بفرعون وجنوده فى مشهد عجيب . . يدعون إلى النار ، ويقودون إليها الأتباع والأنصار :

« وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار » . .

فيا بئساها دعوة ! ويا بئساها إمامة !

« ويوم القيامة لا ينصرون » . .

فهى الهزيمة فى الدنيا ، وهى الهزيمة فى الآخرة ، جزاء البغى والاستطالة . وليست الهزيمة وحدها ، إنما هى اللعنة فى هذه الأرض ، والتقبيح فى يوم القيامة .

وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ، ويوم القيامة هم من المقبوحين .

ولفظة « المقبوحين » ترسم بذاتها صورة القبح والفضيحة والتشنيع ، وجو التقزز

والاشمئزاز . ذلك فى مقابل الاستعلاء والاستكبار فى الأرض ، وفتنة الناس بالمظهر والجاه ، والتطاول على الله وعلى عباد الله .

* * *

ويعبر السياق هنا مرحلة الخروج ببنى إسرائيل من مصر ، وما حدث خلالها من أحداث ، ليعجل بعرض نصيب موسى بعد عرض نصيب فرعون :

« ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى ، بصائر للناس ، وهدى ورحمة ، لعلهم يتذكرون » . .

هذا نصيب موسى . وهو نصيب عظيم . وهذه عاقبة موسى. وهى عاقبة كريمة .. كتاب من الله يبصر الناس كأنه بصائرهم التى بها يهتدون ، « وهدى ورحمة » . . « لعلهم يتذكرون » . . يتذكرون كيف تتدخل يد القدرة بين الطغاة والمستضعفين ، فتختم للطغاة بالهلاك والتدمير ، وتختم للمظلومين بالخير والتمكين .

* * *

وهكذا تنتهى قصة موسى وفرعون فى هذه السورة . شاهدة بأن الأمن لا يكون إلا فى جانب الله . وأن المخافة لا تكون إلا فى البعد عن الله . ذلك إلى تدخل يد القدرة سافرة متحدية للطغيان والطغاة ، حين تصبح القوة فتنة يعجز عن صدها الهداة . وهى المعانى التى كانت الجماعة المسلمة الصغيرة المستضعفة فى مكة فى حاجة إلى الاطمئنان إليها . وكان المشركون المستكبرون فى حاجة إلى تدبرها . وهى المعانى المتجددة الدائمة حيثما كانت دعوة إلى الهدى، وحيثما كان طغيان يقف فى وجه الهدى .

وهكذا يجىء القصص فى القرآن مادة تربية للنفوس ، وتقرير لحقائق وسنن فى الوجود « لعلهم يتذكرون » . .

« وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ ، وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّاهِدِينَ * وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ، وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو

عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ، وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ، وَلَـٰكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَاأَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ، فَيَقُولُوا : رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا ، فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ ، وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا : لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ . أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ؟ قَالُوا : سِحْرَانِ تَظَاهَرَا ، وَقَالُوا : إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ * قُلْ : فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ ٱللهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ ، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ ٱللهِ ؟ إِنَّ ٱللهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ * وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ .

« ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا : آمَنَّا بِهِ ، إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا ، إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ * أُولَـٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ، وَيَدْرَأُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ، وَقَالُوا : لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَاهِلِينَ .

« إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ؛ وَلَـٰكِنَّ ٱللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ .

« وَقَالُوا : إِنْ نَتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا . أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ، رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا ؟ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ، فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ، وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَارِثِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ، وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ * وَمَا

أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ، وَمَا عِنْدَ ٱللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ،أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟* أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ؟

« وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ : أَيْنَ شُرَكَائِيَ ٱلَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ؟ * قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ : رَبَّنَا هَؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ، تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ، مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ * وَقِيلَ : ٱدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ، وَرَأَوُا ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ .

« وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ : مَاذَا أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ؟ * فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ * فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ .

« وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ، مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ، سُبْحَانَ ٱللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَهُوَ ٱللهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَى وَٱلْآخِرَةِ ، وَلَهُ ٱلْحُكْمُ ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

« قُلْ : أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ ٱللهُ عَلَيْكُمُ ٱللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ ، مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ ؟ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ؟ * قُلْ : أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ ٱللهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ؟ أَفَلَا تُبْصِرُونَ؟* وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

« وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ : أَيْنَ شُرَكَائِيَ ٱلَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ؟ * وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا : هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ . فَعَلِمُوا أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ » .

مضت قصة موسى ــ عليه السلام ــ بدلالاتها التى وضحت فى الدرس الماضى . فأما فى هذا الدرس فتبدأ التعقيبات عليها ؛ ثم يمضى السياق فى طريقه على محور السورة الأصيل ، يبين أين يكون الأمن وأين تكون المخافة ؛ ويجول مع المشركين الذين يواجهون دعوة الإسلام بالشرك والإنكار والمعاذير . يجول معهم جولات شتى فى مشاهد الكون ، وفى مشاهد الحشر ، وفيما هم فيه من الأمر ؛ بعد أن يعرض عليهم دلائل الصدق فيما جاءهم به رسولهم ــ صلى الله عليه وسلم ــ وكيف يتلقاه فريق من أهل الكتاب بالإيمان واليقين بينما هم يتلقونه بالكفران والجحود . وهو رحمة لهم من العذاب ، لو أنهم كانوا يتذكرون .

* * *

والتعقيب الأول على القصة يدور حول دلالتها على صدق دعوى الوحى . فرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يتلو عليهم تفصيلات الأحداث كما يقصها شاهد العيان ؛ وما كان حاضر أحداثها ، ولكنه الوحى يقصها عليه من لدن عليم خبير، رحمة بقومه أن يصيبهم العذاب بما هم فيه من الشرك ، « فيقولوا : ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين » . .

« وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر ، وما كنت من الشاهدين . ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر . وما كنت ثاويا فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ؛ ولكنا كنا مرسلين . وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ؛ ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون . ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم ، فيقولوا : ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين . فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا : لولا أوتى مثلما أوتى موسى ! أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل ؟ قالوا : سحران: تظاهرا . وقالوا : إنا بكل كافرون . قل : فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه . إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم . ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ؟ إن الله لا يهدى القوم الظالمين . ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون » . .

والغربى هو الجانب الغربى للطور الذى جعله الله ميقاتا مع موسى ــ عليه السلام ــ بعد أجل محدد . . ثلاثين ليلة ، أتمها بعشر . فكانت أربعين ليلة (على ما ذكر فى سورة الأعراف)

وفى هذا الميقات قضى الأمر لموسى فى الألواح ، لتكون شريعته فى بنى إسرائيل .وما كان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ شاهدا لهذا الميقات ، حتى يعلم نبأه المفصل ، كما ورد فى القرآن الكريم . وإن بينه وبين هذا الحادث لقرونا من الناس ــ أى أجيالا متطاولة: « ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر » . فتلك دلالة على أن الذى نبأه به هو العليم الخبير ، الذى يوحى إليه بالقرآن الكريم .

ولقد تحدث القرآن كذلك بأنباء مدين ، ومقام موسى ــ عليه السلام ــ بها وتلاها رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وما كان مقيما فى أهل مدين ، يتلقى عنهم أخبار هذه الفترة بمثل ذلك التفصيل الذى جاءت فيه : « ولكنا كنا مرسلين » بهذا القرآن وما فيه من أنباء السابقين .

كذلك صور القرآن موقف المناداة والمناجاة من جانب الطور بدقة وعمق : « وما كنت بجانب الطور إذ نادينا » وما سمع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ النداء ، وما سجل فى وقتها تفصيلاته . ولكنها رحمة الله بقومه هؤلاء ، أن قص عليه تلك الأنباء الدالة على صدقه ــ صلى الله عليه وسلم ــ فيما يدعوهم إليه ، لينذر هؤلاء القوم الذين لم يأتهم نذير من قبله ــ فقد كانت الرسالات فى بنى إسرائيل من حولهم ، ولم يرسل إليهم رسول منذ أمد طويل ، منذ أبيهم إسماعيل : « لعلهم يتذكرون » .

فهى رحمة الله بالقوم . وهى حجته كذلك عليهم ، كى لا يعتذروا بأنهم أخذوا على غرة ، وأنهم لم ينذروا قبل أخذهم بالعذاب ــ وما هم فيه من جاهلية وشرك ومعصية يستوجب العذاب ــ فأراد الله أن يقطع حجتهم ، وأن يعذر إليهم ، وأن يقفهم أمام أنفسهم مجردين من كل عائق يعوقهم عن الإيمان :

« ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم ، فيقولوا : ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا ، فنتبع آياتك ، ونكون من المؤمنين ! » ..

كذلك كانوا سيقولون لو لم يأتهم رسول . ولو لم يكن مع هذا الرسول من الآيات مايلزم الحجة . ولكنهم حين جاءهم الرسول ، ومعه الحق الذى لا مرية فيه لم يتبعوه :

« فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا : لولا أوتى مثلما أوتى موسى ! أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل ؟ قالوا : سحران تظاهرا ، وقالوا : إنا بكل كافرون » ..

وهكذا لم يذعنوا للحق ، واستمسكوا بالتعلات الباطلة : « قالوا : لولا أوتى مثلما أوتى موسى » إما من الخوارق المادية ، وإما من الألواح التى نزلت عليه جملة ، وفيها التوراة كاملة .

ولكنهم لم يكونوا صادقين فى حجتهم ، ولا مخلصين فى اعتراضهم : « أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل ؟ » ولقد كان فى الجزيرة يهود ، وكان معهم التوراة ، فلم يؤمن لهم العرب ، ولم يصدقوا بما بين أيديهم من التوراة . ولقد علموا أن صفة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكتوبة فى التوراة ، واستفتوا بعض أهل الكتاب فيما جاءهم به فأفتوهم بما يفيد أنه الحق ، وأنه مطابق لما بين أيديهم من الكتاب ؛ فلم يذعنوا لهذا كله ، وادعوا أن التوراة سحر ، وأن القرآن سحر ، وأنهما من أجل هذا يتطابقان ، ويصدق أحدهما الآخر :

« قالوا: سحران تظاهرا . وقالوا : إنا بكل كافرون » !

فهو المراء إذن واللجاجة ، لا طلب الحق ولا نقصان البراهين ، ولا ضعف الدليل .

ومع هذا فهو يسير معهم خطوة أخرى فى الإفحام والإحراج . يقول لهم : إن لم يكن يعجبكم القرآن ، ولم تكن تعجبكم التوراة ؛ فإن كان عندكم من كتب الله ما هو أهدى من التوراة والقرآن فأتوا به أتبعه :

« قل : فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه . إن كنتم صادقين » !

وهذه نهاية الإنصاف ، وغاية المطاولة بالحجة ، فمن لم يجنح إلى الحق بعد هذا فهو ذو الهوى المكابر ، الذى لا يستند إلى دليل :

« فإن لم يستجيبوا لك ، فاعلم أنما يتبعون أهواءهم . ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ؟ إن الله لا يهدى القوم الظالمين » ..

إن الحق فى هذا القرآن لبين ؛ وإن حجة هذا الدين لواضحة ، فما يتخلف عنه أحد يعلمه إلا أن يكون الهوى هو الذى يصده . وإنهما لطريقان لا ثالث لهما : إما إخلاص للحق وخلوص من الهوى ، وعندئذ لا بد من الإيمان والتسليم . وإما مماراة فى الحق واتباع للهوى فهو التكذيب والشقاق . ولا حجة من غموض فى العقيدة ، أو ضعف فى الحجة ، أو نقص فى الدليل . كما يدعى أصحاب الهوى المغرضون .

« فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم » ..

وهكذا جزما وقطعا . كلمة من الله لا راد لها ولا معقب عليها . . إن الذين لا يستجيبون لهذا الدين معرضون غير معذورين. متجنون لا حجة لهم ولا معذرة ، متبعون للهوى ، معرضون عن الحق الواضح :

« ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ؟ » ..

وهم فى هذا ظالمون باغون :

« إن الله لا يهدى القوم الظالمين » ..

إن هذا النص ليقطع الطريق على المتعذرين بأنهم لم يفهموا عن هذا القرآن ، ولم يحيطوا علما بهـذا الدين . فما هو إلا أن يصل إليهم ، ويعرض عليهم ، حتى تقوم الحجة ، وينقطع الجدل ، وتسقط المعذرة . فهو بذاته واضح واضح ، لا يحيد عنه إلا ذو هوى يتبع هواه ، ولا يـكذب به إلا متجن يظلم نفسه ، ويظلم الحق البين ولا يستحق هدى الله . « إن الله لا يهدى القوم الظالمين » ..

ولقد انقطع عذرهم بوصول الحق إليهم ، وعرضه عليهم ، فلم يعد لهم من حجة ولا دليل .

« ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون » ..

* * *

وحين تنتهى هذه الجولة ، فيتبين منها التواؤهم ومراؤهم ، يأخذ معهم فى جولة أخرى تعرض عليهم صورة من استقامة الطبع وخلوص النيـة . تتجلى هذه الصورة فى فريق من الذين أوتوا الـكتاب من قبلهم ، وطريقة استقبالهم للقرآن المصدق لما بين أيديهم :

« الذين آتيناهم الـكتاب من قبله هم به يؤمنون ؛ وإذا يتلى عليهم قالوا : آمنا به ، إنه الحق من ربنا ، إنا كنا من قبله مسلمين . أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ، ويدرأون بالحسنة السيئة ، ومما رزقناهم ينفقون ؛ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ، وقالوا : لنا أعمالنا ولـكم أعمالـكم ، سلام عليـكم ، لا نبتغى الجاهلين » ..

قال سعيد ابن جبير ــ رضى الله عنه ــ نزلت فى سبعين من القسيسين بعثهم النجاشى ، فلما قدموا على النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ قرأ عليهم : « يس والقرآن الحـكيم » حتى ختمها ، فجعلوا يبـكون وأسلموا ؛ ونزلت فيهم هذه الآية الأخرى : « الذين آتيناهم الـكتاب من قبله هم به يؤمنون . . . إلخ » ...

وروى محمد ابن إسحاق فى السيرة : « ثم قدم على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو بمكة عشرون رجلا أو قريبا من ذلك من النصارى ، حين بلغهم خبره من الحبشة ، فوجدوه فى المسجد ، فجلسوا إليه وكلموه ، وسألوه ، ورجال من قريش فى أنديتهم حول الكعبة ، فلما فرغوا من مساءلة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عما أرادوا دعاهم إلى الله تعالى ، وتلا عليهم القرآن . فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدقوه ، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره . فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل ابن هشام ، فى نفر من قريش ، فقالوا لهم : خيبكم الله من ركب ! بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فيما قال ؟ ما نعلم ركبا أحمق منكم ! فقالوا لهم : سلام عليكم لا نجاهلكم ، لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه ، لم نأل أنفسنا خيرا » .

قال : ويقال : إن النفر النصارى من أهل نجران . فالله أعلم أى ذلك كان . قال : ويقال والله أعلم : إن فيهم نزلت هذه الآيات : « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . . . إلخ » .

قال : وسألت الزهرى عن هذه الآيات فيمن نزلت ؟ قال : ما زلت أسمع من علمائنا أنهن نزلن فى النجاشى وأصحابه ـ رضى الله عنه ـ والآيات اللاتى فى سورة المائدة : « ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً ... إلى قوله ـ فاكتبنا مع الشاهدين » .

وأياً ما كان الذين نزلت فى أمرهم هذه الآيات ، فالقرآن يرد المشركين إلى حادث وقع ، يعلمونه ولا ينكرونه . كى يقفهم وجها لوجه أمام نموذج من النفوس الخالصة كيف تتلقى هذا القرآن ، وتطمئن إليه ، وترى فيه الحق ، وتعلم مطابقته لما بين أيديها من الكتاب . ولا يصدها عنه صاد من هوى ولا من كبرياء ؛ وتحتمل فى سبيل الحق الذى آمنت به ما يصيبها من أذى وتطاول من الجهلاء ، وتصبر على الحق فى وجه الأهواء ووجه الإيذاء .

« الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون » . .

وهذه إحدى الآيات على صحته ، فالكتاب كله من عند الله ، فهو متطابق ، من أوتى أوله عرف الحق فى آخره ، فاطمأن له ، وآمن به ، وعلم أنه من عند الله الذى نزل الكتاب كله .

« وإذا يتلى عليهم قالوا : آمنا به . إنه الحق من ربنا . إنا كنا من قبله مسلمين » ...

فهو من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى أكثر من تلاوته فيعرف الذين عرفوا الحق من قبل

أنه من ذلك المعين ، وأنه صادر من ذلك المصدر الواحد الذى لا يكذب . « إنه الحق من ربنا » . . « إنا كنا من قبله مسلمين » . والإسلام لله هو دين المؤمنين بكل دين .

هؤلاء الذين أسلموا لله من قبل ، ثم صدقوا بالقرآن بمجرد سماعه :

« أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا » . .

الصبر على الإسلام الخالص . إسلام القلب والوجه . ومغالبة الهوى والشهوة . والاستقامة على الدين فى الأولى والآخرة . أولئك يؤتون أجرهم مرتين ، جزاء على ذلك الصبر ، وهو عسير على النفوس ، وأعسر الصبر ما كان على الهوى والشهوة والالتواء والانحراف . وهؤلاء صبروا عليها جميعا ، وصبروا على السخرية والإيذاء كما سبقت الرواية ، وكما يقع دائما للمستقيمين على دينهم فى المجتمعات المنحرفة الضالة الجاهلة فى كل زمان ومكان :

« ويدرأون بالحسنة السيئة » . .

وهذا هو الصبر كذلك . وهو أشد مؤنة من مجرد الصبر على الإيذاء والسخرية . إنه الاستعلاء على كبرياء النفس ، ورغبتها فى دفع السخرية ، ورد الأذى ، والشفاء من الغيظ ، والبرد بالانتقام! ثم درجة أخرى بعد ذلك كله . درجة السماحة الراضية . التى ترد القبيح بالجميل وتقابل الجاهل الساخر بالطمأنينة والهدوء وبالرحمة والإحسان ؛ وهو أفق من العظمة لا يبلغه إلا المؤمنون الذين يعاملون الله فيرضاهم ويرضونه، فيلقون ما يلقون من الناس راضين مطمئنين.

« ومما رزقناهم ينفقون » . .

وكأنما أراد أن يذكر سماحة نفوسهم بالمـال ، عقب ذكره لسماحة نفوسهم بالإحسان . فهما من منبع واحد: منبع الاستعلاء على شهوة النفس ، والاعتزاز بما هو أكبر من قيم الأرض. الأولى فى النفس ، والثانية فى المال . وكثيرا ما يردان متلازمين فى القرآن .

وصفة أخرى من صفة النفوس المؤمنة الصابرة على الإسلام الخالصة للعقيدة :

« وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ، وقالوا : لنا أعمالنا ولكم أعمالكم . سلام عليكم . لا نبتغى الجاهلين » . .

واللغو فارغ الحديث ، الذى لا طائل تحته ، ولا حاصل وراءه . وهو الهذر الذى يقتل الوقت دون أن يضيف إلى القلب أو العقل زادا جديدا ، ولا معرفة مفيدة . وهو البذىء من القول الذى يفسد الحس واللسان ، سواء : أوجه إلى مخاطب أم حكى عن غائب .

والقلوب المؤمنة لا تلغو ذلك اللغو ، ولا تستمع إلى ذاك الهذر ، ولا تعنى بهذا البذاء . فهى مشغولة بتكاليف الإيمان ، مرتفعة بأشواقه ، متطهرة بنوره :

« وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه » . .

ولكنهم لا يهتاجون ولا يغتاظون ولا يجارون أهل اللغو فيردون عليهم بمثله ، ولا يدخلون معهم فى جدل حوله ، لأن الجدل مع أهل اللغو لغو ؛ إنما يتركونهم فى موادعة وسلام .

« وقالوا : لنا أعمالنا ولكم أعمالكم . سلام عليكم » . .

هكذا فى أدب ، وفى دعاء بالخير ، وفى رغبة فى الهداية .. مع عدم الرغبة فى المشاركة :

« لا نبتغى الجاهلين » . .

ولا نريد أن ننفق معهم وقتنا الثمين ، ولا أن نجاريهم فى لغوهم أو نسمع إليه صامتين ! .

إنها صورة وضيئة للنفس المؤمنة المطمئنة إلى إيمانها . تفيض بالترفع عن اللغو . كما تفيض بالسماحة والود . وترسم لمن يريد أن يتأدب بأدب الله طريقه واضحا لا لبس فيه . فلا مشاركة للجهال ، ولا مخاصمة لهم ، ولا موجدة عليهم ، ولا ضيق بهم . إنما هو الترفع والسماحة وحب الخير حتى للجارم المسىء .

* * *

هؤلاء الذين آمنوا من أهل الكتاب لم يزد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى جهاده معهم للإيمان على أن يتلو عليهم القرآن . ووراءه من قومه من جهد جهده ليؤمن ؛ ومن أحب بكل نفسه أن يهديه للإسلام . فلم يقدر الله له ذلك لأمر يعلمه من نفسه . وما كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليهدى من يحب . إنما يهدى الله من يعلم من نفسه ما يستحق به الهدى ومن هو مستعد للإيمان . .

« إنك لا تهدى من أحببت ، ولكن الله يهدى من يشاء . وهو أعلم بالمهتدين » . .

ورد فى الصحيحين أنها نزلت فى أبى طالب عم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد كان يحوطه وينصره ، ويقف دونه فى وجه قريش ، ويحميه حتى يبلغ دعوته ، ويحتمل فى سبيل ذلك مقاطعة قريش له ولبنى هاشم وحصارهم فى الشعب . ولكنه إنما يفعل ذلك كله حبا لابن أخيه ، وحمية وإباء ونخوة . فلما حضرته الوفاة دعاه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الإيمان والدخول فى الإسلام ، فلم يكتب الله له هذا ، لما يعلمه سبحانه من أمره . .

قال الزهرى:حدثنى سعيد ابن المسيب عن أبيه وهو المسيب ابن حزن المخزومى ـ رضى الله عنه ـ قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءهرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فوجدعنده أبا جهل ابن هشام وعبدالله ابن أمية ابن المغيرة . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: « يا عم قل : لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله » فقال أبو جهل وعبدالله ابن أمية : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبدالمطلب ؟ فلم يزل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعرضها عليه ويعودان له بتلك المقالة حتى كان آخر ما قال : على ملة عبد المطلب . وأبى أن يقول : لا إله إلا الله . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « والله لأستغفرن لك مالم أنه عنك» فأنزل الله تعالى : « ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى». وأنزل فى أبى طالب : « إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء » ..(أخرجاه فى الصحيحين من حديث الزهرى) .

ورواه مسلم فى صحيحه والترمذى من حديث يزيد ابن كيسان عن أبى حازم عن أبى هريرة قال : لما حضرت وفاة أبى طالب أتاه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : « يا عماه . قل : لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة » فقال : لولا أن تعيرنى بها قريش يقولون : ما حمله عليها إلا جزع الموت لأقررت بها عينك . لا أقولها إلا لأقربهاعينك. ونزل قول الله تعالى : « إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين».

وروى عن ابن عباس وابن عمر ومجاهد والشعبى وقتادة أنها نزلت فى أبى طالب . وكان آخر ما قاله : هو على ملة عبد المطلب .

وإن الإنسان ليقف أمام هذا الخبر مأخوذاً بصرامة هذا الدين واستقامته . فهذا عم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكافله وحاميه والذائد عنه ، لا يكتب الله له الإيمان ، على شدة حبه لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وشدة حب رسول الله له أن يؤمن . ذلك أنه إنما قصد إلى عصبية القرابة وحب الأبوة ، ولم يقصد إلى العقيدة . وقد علم الله هذا منه ، فلم يقدر له ما كان يحبه له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويرجوه . فأخرج هذا الأمر ـ أمر الهداية ـ من حصة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجعله خاصا بإرادته سبحانه وتقديره . وما على الرسول إلا البلاغ . وما على الداعين بعده إلا النصيحة . والقلوب بعد ذلك بين أصابع الرحمان ، والهدى والضلال وفق ما يعلمه من قلوب العباد واستعدادهم للهدى أو للضلال .

* * *

والآن يجيء السياق إلى قولتهم التى قالوها للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ معتذرين عن اتباعه مخافة أن يفقدوا سلطانهم على قبائل العرب المجاورة ، التى تعظم الكعبة ، وتدين لسدنتها ، وتعظم أصنامها ، فتتخطفهم تلك القبائل ، أو يتخطفهم أعداؤهم من وراء شبه الجزيرة دون أن تساندهم هذه القبائل . فيبين لهم أين يكون الأمن وأين يكون الخوف من واقعهم التاريخى ، ومن حاضرهم الذى يشهدونه ، بعد ما أبان لهم فى هذه السورة عن ذلك فى قصة موسى وفرعون . ويجول معهم جولة فى مصارع الغابرين تكشف لهم كذلك عن أسباب الهلاك الحقيقية ممثلة فى البطر وقلة الشكر والتكذيب بالرسل والإعراض عن الآيات . ثم جولة أخرى أبعد تكشف عن حقيقة القيم وتبدو فيها ضآلة الحياة الدنيا كلها ومتاعها إلى جوار ما عند الله .

«وقالوا: إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا . أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنا ؟ ولكن أكثرهم لا يعلمون. وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها ، فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا ، وكنا نحن الوارثين . وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا،وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون . وما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها ، وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون ؟ أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين ؟ » ..

إنها النظرة السطحية القريبة ، والتصور الأرضى المحدود ، هو الذى أوحى لقريش وهو الذى يوحى للناس أن اتباع هدى الله يعرضهم للمخافة ، ويغرى بهم الأعداء ، ويفقدهم العون والنصير ، ويعود عليهم بالفقر والبوار :

« وقالوا : إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا » ..

فهم لا ينكرون أنه الهدى ، ولكنهم يخافون أن يتخطفهم الناس . وهم ينسون الله ، وينسون أنه وحده الحافظ ، وأنه وحده الحامى ؛ وأن قوى الأرض كلها لا تملك أن تتخطفهم وهم فى حمى الله ؛ وأن قوى الأرض كلها لا تملك أن تنصرهم إذا خذلهم الله . ذلك أن الإيمان لم يخالط قلوبهم ، ولو خالطها لتبدلت نظرتهم للقوى ، ولاختلف تقديرهم للأمور ، ولعلموا أن الأمن لا يكون إلا فى جوار الله ، وأن الخوف لا يكون إلا فى البعد عن هداه . وأن هذا الهدى موصول بالقوة موصول بالعزة ؛ وأن هذا ليس وهما وليس قولا يقال لطمأنة القلوب . إنما هو

حقيقة عميقة منشؤها أن اتباع هدى الله معناه الاصطلاح مع ناموس الكون وقواه ، والاستعانة بها وتسخيرها فى الحياة . فالله خالق هذا الكون ومدبره وفق الناموس الذى ارتضاه له . والذى يتبع هدى الله يستمد مما فى هذا الكون من قوى غير محدودة ، ويأوى إلى ركن شديد ، فى واقع الحياة .

إن هدى الله منهج حياة صحيحة . حياة واقعة فى هذه الأرض . وحين يتحقق هذا النهج تكون له السيادة الأرضية إلى جانب السعادة الأخروية . وميزته أنه لا انفصال فيه بين طريق الدنيا وطريق الآخرة ؛ ولا يقتضى إلغاء هذه الحياة الدنيا أو تعطيلها ليحقق أهداف الحياة الآخرة . إنما هو يربطها معا برباط واحد : صلاح القلب وصلاح المجتمع وصلاح الحياة فى هذه الأرض . ومن ثم يكون الطريق إلى الآخرة . فالدنيا مزرعة الآخرة ، وعمارة جنة هذه الأرض وسيادتها وسيلة إلى عمارة جنة الآخرة والخلود فيها . بشرط اتباع هدى الله . والتوجه إليه بالعمل والتطلع إلى رضاه .

وما حدث قط فى تاريخ البشرية أن استقامت جماعة على هدى الله إلا منحها القوة والمنعة والسيادة فى نهاية المطاف ؛ بعد إعدادها لحمل هذه الأمانة . أمانة الخلافة فى الأرض وتصريف الحياة .

وإن الكثيرين ليشفقون من اتباع شريعة الله والسير على هداه . يشفقون من عداوة أعداء الله ومكرهم ، ويشفقون من تألب الخصوم عليهم ، ويشفقون من المضايقات الاقتصادية وغير الاقتصادية ! وإن هى إلا أوهام كأوهام قريش يوم قالت لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا » . فلما اتبعت هدى الله سيطرت على مشارق الأرض ومغاربها فى ربع قرن أو أقل من الزمان .

وقد رد الله عليهم فى وقتها بما يكذب هذا العذر الموهوم . فمن الذى وهبهم الأمن ؟ ومن الذى جعل لهم البيت الحرام ؟ ومن الذى جعل القلوب تهوى إليهم تحمل من ثمرات الأرض جميعا ؟ تتجمع فى الحرم من كل أرض ، وقد تفرقت فى مواطنها ومواسمها الكثيرة :

« أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنا ؟ » . .

فما بالهم يخافون أن يتخطفهم الناس لو اتبعوا هدى الله ، والله هو الذى مكن لهم هذا

الحرم الآمن منذ أيام أبيهم إبراهيم ؟ أفمن أمنهم وهم عصاة ، يدع الناس يتخطفونهم وهم تقاة ؟!
« ولكن أكثرهم لا يعلمون » ..

لا يعلمون أين يكون الأمن وأين تكون المخافة . ولا يعلمون أن مرد الأمر كله لله .

فأما إن أرادوا أن يتقوا المهالك حقا ، وأن يأمنوا التخطف حقا ، فهاهى ذى علة الهلاك فليتقوها :

« وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا ، وكنا نحن الوارثين » ..

إن بطر النعمة ، وعدم الشكر عليها ، هو سبب هلاك القرى . وقد أوتوا من نعمة الله ذلك الحرم الآمن ؛ فليحذروا إذن أن يبطروا ، وألا يشكروا ، فيحل بهم الهلاك كما حل بالقرى التى يرونها ويعرفونها ، ويرون مساكن أهلها الداثرين خاوية خالية .. « لم تسكن من بعدهم إلا قليلا » . وبقيت شاخصة تحدث عن مصارع أهلها ، وتروى قصة البطر بالنعمة ؛ وقد فنى أهلها فلم يعقبوا أحدا ، ولم يرثها بعدهم أحد « وكنا نحن الوارثين » .

على أن الله لم يهلك تلك القرى المتبطرة إلا وقد أرسل فى أمها رسولا . فتلك هى سنته التى كتبها على نفسه رحمة بعباده :

« وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا ، وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون » ..

وحكمة إرسال الرسول فى أم القرى ـ أى كبراها أو عاصمتها ـ أن تكون مركزا تبلغ منه الرسالة إلى الأطراف فلا تبقى حجة ولا عذر فيها لأحد . وقد أرسل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى مكة أم القرى العربية . فهو ينذرهم عاقبة المكذبين قبلهم بعد ماجاءهم النذير . « وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون » .. يكذبون بالآيات عن معرفة وعن يقين !

على أن متاع الحياة الدنيا بكامله ، وعرض الحياة الدنيا جميعه ، وما مكنهم الله فيه من الأرض ، وما وهبهم إياه من الثمرات ، وما يتسنى للبشر كلهم طوال هذه الحياة ، إن هو إلا شىء ضئيل زهيد ، إذا قيس بما عند الله :

« وما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها . وما عند الله خير وأبقى . أفلا تعقلون؟ » .
وهذا هو التقويم الأخير لا لما يخشون فوته من الأمن والأرض والمتاع وحده ؛ ولا لما

عن به الله عليهم من التمكين والثمار والأمان وحده ؛ ولا لما وهبه الله للقرى ثم أهلكها بالتبطر فيه وحده . إنما هو التقويم الأخير لكل مافى هذه الحياة الدنيا حتى لو ساغ ، وحتى لو كمل ، وحتى لو دام ، فلم يعقبه الهلاك والدمار . إنه كله « متاع الحياة الدنيا وزينتها » . . « وما عند الله خير وأبقى » خير فى طبيعته وأبقى فى مدته .

« أفلا تعقلون؟ » ..

والمفاضلة بين هذا وذاك تحتاج إلى عقل يدرك طبيعة هذا وذاك . ومن ثم يجيء التعقيب فى هذه الصيغة للتنبيه لإعمال العقل فى الاختيار !

وفى نهاية هذه الجولة يعرض عليهم صفحتى الدنيا والآخرة ، ولمن شاء أن يختار :

« أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين ؟ » ..

فهذه صفحة من وعده الله وعدا حسنا فوجده فى الآخرة حقا وهو لابد لاقيه . وهذه صفحة من نال متاع الحياة الدنيا القصير الزهيد ، ثم هاهو ذا فى الآخرة محضر إحضاراً للحساب . والتعبير يوحى بالإكراه « من المحضرين » الذين يجاء بهم مكرهين خائفين يودون أن لم يكونوا محضرين ، لما ينتظرهم من وراء الحساب على ذلك المتاع القصير الزهيد !

وتلك نهاية المطاف فى الرد على مقالتهم : « إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا » فحتى لو كان ذلك كذلك ، فهو خير من أن يكونوا فى الآخرة من المحضرين ! فكيف واتباع هدى الله معه الأمن فى الدنيا والتمكين ، ومعه العطاء فى الآخرة والأمان ؟ ألا إنه لا يترك هدى الله إذن إلا الغافلون الذين لا يدركون حقيقة القوى فى هذا الكون ، ولا يعرفون أين تكون المخافة وأين يكون الأمن . وإلا الخاسرون الذين لا يحسنون الاختيار لأنفسهم ولا يتقون البوار .

* * *

وعندما يصل بهم إلى الشاطيء الآخر يجول بهم جولة أخرى فى مشهد من مشاهد القيامة ، يصور مغبة ماهم فيه من الشرك والغواية :

« ويوم يناديهم فيقول : أين شركائى الذين كنتم تزعمون ؟ قال الذين حق عليهم القول : ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا ، تبرأنا إليك ماكانوا إيانا يعبدون . وقيل : ادعوا

شركاءكم . فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ، ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون .

« ويوم يناديهم فيقول : ماذا أجبتم المرسلين ؟ فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون . فأما من تاب وآمن وعمل صالحا ، فعسى أن يكون من المفلحين » ..

والسؤال الأول للتوبيخ والتأنيب :

« أين شركائى الذين كنتم تزعمون ؟ » ..

والله يعلم أن لا وجود اليوم لهؤلاء الشركاء ، وأن أتباعهم لا يعلمون عنهم شيئاً ، ولا يستطيعون إليهم سبيلا . ولكنه الخزى والفضيحة على رؤوس الأشهاد .

ومن ثم لا يجيب المسؤولون عن السؤال ، فليس المقصود به هو الجواب ! إنما يحاولون أن يتبرأوا من جريرة إغوائهم لمن وراءهم ، وصدهم عن هدى الله ، كما كان يفعل كبراء قريش مع الناس خلفهم ، فيقولون :

« ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا؛ تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون» !

ربنا إننا لم نغوهم قسرا ، فما كان لنا من سلطان على قلوبهم ؛ إنما هم وقعوا فى الغواية عن رضى منهم واختيـار ، كما وقعنا نحن فى الغواية دون إجبار . « تبرأنا إليك » من جريمة إغوائهم . « ماكانوا إيانا يعبدون » إنماكانوا يعبدون أصناما وأوثانا وخلقا من خلقك ، ولم نجعل أنفسنا لهم آلهة ، ولم يتوجهوا إلينا نحن بالعبادة !

عندئذ يعود بهم إلى المخزاة التى حولوا الحديث عنها . مخزاة الشركاء الذين اتخذوهم من دون الله :

« وقيل : ادعوا شركاءكم » ..

ادعوهم ولا تهربوا من سيرتهم ! ادعوهم ليلبوكم وينقذوكم ! ادعوهم فهذا يومهم وهذه فائدتهم !

والبائسون يعرفون أن لا جدوى من دعائهم ، ولكنهم يطيعون الأمر مقهورين :

« فدعوهم فلم يستجيبوا لهم » ..

ولم يكن منتظرا غير ذاك ، ولكنه الإذلال والإعنات !

« ورأوا العذاب » ..

رأوه فى هذا الحوار . ورأوه ماثلا وراءه . فليس وراء هذا الموقف إلا العذاب .

وهنا فى اللحظة التى يصل فيها المشهد إلى ذروته يعرض عليهم الهدى الذى يرفضونه ، وهو أمنية المتمنى فى ذلك الموقف المكروب : وهو بين أيديهم فى الدنيا لو أنهم إليه يسارعون :

« لو أنهم كانوا يهتدون » ..

ثم يعود بهم إلى ذلك المشهد المكروب :

« ويوم يناديهم فيقول : ماذا أجبتم المرسلين ؟ » ..

وإن الله ليعلم ماذا أجابوا المرسلين . ولكنه كذلك سؤال التأنيب والترذيل . وإنهم ليواجهون السؤال بالذهول والصمت . ذهول المكروب وصمت الذى لا يجد ما يقول :

« فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون » .

والتعبير يلقى ظل العمى على المشهد والحركة . وكأنما الأنباء عمياء لا تصل إليهم ، وهم لا يعلمون شيئا عن أى شئ ! ولا يملكون سؤالا ولا جوابا . وهم فى ذهولهم صامتون ساكتون !

« فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحين » . .

وهذه هى الصفحة المقابلة . ففى الوقت الذى يبلغ الكرب ذروته بالمشركين ، يتحدث عمن تاب وآمن وعمل صالحا ، وما ينتظره من الرجاء فى الفلاح . ولمن شاء أن يختار . وفى الوقت فسحة للاختيار !

* * *

ثم يرد أمرهم وأمر كل شئ إلى إرادة الله واختياره ؛ فهو الذى يخلق كل شئ ، ويعلم كل شئ ، وإليه مرد الأمر كله فى الأولى والآخرة ، وله الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم فى الدنيا وله الرجعة والمآب . وما يملكون أن يختاروا لأنفسهم ولا لغيرهم ، فالله يخلق ما يشاء ويختار :

« وربك يخلق ما يشاء ويختار ، ما كان لهم الخيرة ، سبحان الله وتعالى عما يشركون . وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون . وهو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة ، وله الحكم وإليه ترجعون » . .

وهذا التعقيب يجئ بعد حكاية قولهم : « إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا » وبعد

استعراض موقفهم يوم الحساب على الشرك والغواية .. يجئ لتقرير أنهم لا يملكون الاختيار لأنفسهم فيختاروا الأمن أو المخافة ! ولتقرير وحدانية الله ورد الأمر كله إليه فى النهاية .

« وربك يخلق ما يشاء ويختار . ما كان لهم الخيرة » ..

إنها الحقيقة التى كثيرا ما ينساها الناس ، أو ينسون بعض جوانبها . إن الله يخلق مايشاء؛ لا يملك أحد أن يقترح عليه شيئا ولاأن يزيد أو ينقص فى خلقه شيئا ، ولا أن يعدل أو يبدل فى خلقه شيئا . وإنه هو الذى يختار من خلقه ما يشاء ومن يشاء لما يريد من الوظائف والأعمال والتكاليف والمقامات ؛ ولا يملك أحد أن يقترح عليه شخصا ولا حادثا ولا حركة ولا قولا ولا فعلا . . « ما كان لهم الخيرة » لافى شأن أنفسهم ولا فى شأن غيرهم، ومرد الأمر كله إلى الله فى الصغير والكبير . .

هذه الحقيقة لو استقرت فى الأخلاد والضمائر لما سخط الناس شيئا يحل بهم ، ولا استخفهم شئ ينالونه بأيديهم ، ولا أحزنهم شئ يفوتهم أو يفلت منهم . فليسوا هم الذين يختارون ، إنما الله هو الذى يختار .

وليس معنى هذا أن يلغوا عقولهم وإرادتهم ونشاطهم . ولكن معناه أن يتقبلوا ما يقع — بعد أن يبذلوا مافى وسعهم من التفكير والتدبير والاختيار — بالرضى والتسلم والقبول . فإن عليهم مافى وسعهم والأمر بعد ذلك لله .

ولقد كان المشركون يشركون مع الله آلهة مدعاة؛ والله وحده هو الخالق المختار لا شريك له فى خلقه ولا فى اختياره . .

« سبحان الله وتعالى عما يشركون » . .

« وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون » ..

فهو مجازيهم بما يعلم من أمرهم ، مختار لهم ماهم له أهل ، من هدى أو ضلال .

« وهو الله لا إله إلا هو » .. فلا شريك له فى خلق ولا اختيار .

« وله الحمد فى الأولى والآخرة » . . على اختياره ، وعلى نعمائه ، وعلى حكمته وتدبيره ، وعلى عدله ورحمته ، وهو وحده المختص بالحمد والثناء .

« وله الحكم » .. يقضى فى عباده بقضائه ، لا راد له ولا مبدل لحكمه .

« وإليه ترجعون » . . فيقضى بينكم قضاءه الأخير ..

وهكذا يطوقهم بالشعور بقدرة الله وتفرد إرادته فى هذا الوجود واطلاعه على سرهم وعلانيتهم فلا تخفى عليه منهم خافية ؛ وإليه مرجعهم فلا تشرد منهم شاردة . فكيف يشركون بالله بعد هذا وهم فى قبضته لا يفلتون ؟

***

ثم يجول بهم جولة فى مشاهد الكون الذى يعيشون فيه غافلين عن تدبير الله لهم ، واختياره لحياتهم ومعاشهم ؛ فيوقظ مشاعرهم لظاهرتين كونيتين عظيمتين . ظاهرتى الليل والنهار ، وما وراءهما من أسرار الاختيار والشهادة بوحدانية الخالق المختار :

« قل : أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء؟ أفلا تسمعون ؟ قل : أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ؟ أفلا تبصرون ؟ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون » ..

والناس لطول ما اعتادوا من كر الجديدين ينسون جدتهما المتكررة التى لا تبلى . ولا يروعهم مطلع الشمس ولا مغيبها إلا قليلا . ولا يهزهم طلوع النهار وإقبال الليل إلا نادرا . ولا يتدبرون ما فى توالبهما من رحمة بهم وإنقاذ من البلى والدمار ، أو التعطل والبوار ، أو الملل والهمود .

والقرآن الكريم يوقظهم من همود الإلف والعادة ، ويلفتهم إلى تملى الكون من حولهم ومشاهده العظيمة ؛ وذلك حين يخيل إليهم استمرار الليل أبدا أو النهار أبدا ، وحين يخيفهم من عواقب هذا وذاك . ومايشعر الإنسان بقيمة الشىء إلا حين يفقده أو يخاف عليه الفقدان.

« قل : أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة . من إله غير الله يأتيكم بضياء ؟ أفلا تسمعون ؟ » . .

والناس يشتاقون إلى الصبح حين يطول بهم الليل قليلا فى أيام الشتاء ، ويحنون إلى ضياء الشمس حين تتوارى عنهم فترة وراء السحاب ! فكيف بهم لو فقدوا الضياء . ولو دام عليهم الليل سرمدا إلى يوم القيامة ؟ ذلك على فرض أنهم ظلوا أحياء . وإن الحياة كلها لمعرضة للتلف والبوار ، لو لم يطلع عليها النهار !

« قل : أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة . من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ؟ أفلا تبصرون ؟ »[1] . .

والناس يستروحون الظلال حين يطول عليهم الهجير ساعات من النهار . ويحنون إلى الليل حين يطول النهار بعض ساعات فى الصيف . ويجدون فى ظلام الليل وسكونه الملجأ والقرار . والحياة كلها تحتاج إلى فترة الليل لتجدد ما تنفقه من الطاقة فى نشاط النهار . فكيف بالناس لو ظل النهار سرمدا إلى يوم القيامة على فرض أنهم ظلوا أحياء . وإن الحياة كلها لمعرضة للتلف والبوار إن دام عليها النهار !

ألا إن كل شىء بقدر . وكل صغيرة وكبيرة فى هذا الكون بتدبير . وكل شىء عنده بمقدار :

« ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » . .

فالليل سكينة وقرار ، والنهار نشاط وعمل ، والمتجه فيه إلى فضل الله . فما يعطى الناس شيئا إلا من فضله « ولعلكم تشكرون » ما يسره الله لكم من نعمة ومن رحمة ، وما دبره لكم واختاره من توالى الليل والنهار ، ومن كل سنن الحياة التى لم تختاروها ، ولكن اختارها الله عن رحمة وعن علم وعن حكمة تغفلون عنها لطول الإلف والتكرار .

* * *

ويختم هذه الجولات بمشهد سريع من مشاهد القيامة يسألهم فيه سؤال استنكار عما زعموا من شركاء . ويقفهم وجها لوجه أمام أباطيلهم المدعاة ، حيث تتذاوب وتتهاوى فى موقف السؤال والحساب :

« ويوم يناديهم فيقول : أين شركائى الذين كنتم تزعمون ؟ ونزعنا من كل أمة شهيدا فقلنا : هاتوا برهانكم . فعلموا أن الحق لله ، وضل عنهم ما كانوا يفترون » . .

وتصوير يوم النداء ، وما فيه من سؤال عن الشركاء ، قد سبق فى جولة ماضية . فهو يعاد هنا لتوكيده وتثبيته بمناسبة المشهد الجديد الذى يعرض هنا . مشهد نزع شهيد من كل أمة . وهو نبيها الذى يشهد بما أجابته وما استقبلت به رسالته . والنزع حركة شديدة ، والمقصود

---

(١) حين ذكر الليل لو كان سرمدا قال : « أفلا تسمعون ؟ » وحين ذكر النهار لو كان سرمدا قال: « أفلا تبصرون ؟ » ذلك أن السمع هو حاسة الليل والبصر هو حاسة النهار وذلك من التناسق الفنى فى الأداء .

إقامته وإبرازه وإفراده من بينهم ليشهده قومه جميعا وليشهد قومه جميعا . وفى مواجهة هذا الشاهد يطلب منهم برهانهم على ما اعتقدوا ومافعلوا . وليس لديهم برهان ؛ ولاسبيل لهم يومئذ إلى المكابرة :

« فعلموا أن الحق لله » . . الحق كله خالصا لا شبهة فيه ولا ريبة .

« وضل عنهم ما كانوا يفترون » . . من شرك ومن شركاء ، فما هو بواجدهم وما هم بواجديه ! فى وقت حاجتهم إليه فى موقف الجدل والبرهان !

* * *

بهذا تنتهى التعقيبات على قصة موسى وفرعون . وقد طوفت بالنفوس والقلوب فى تلك الآفاق والعوالم والأحداث والمشاهد . وردتها من الدنيا إلى الآخرة ، ومن الآخرة إلى الدنيا . وطوفت بها فى جنبات الكون وفى أغوار النفس ، وفى مصارع الغابرين ، وفى سنن الكون والحياة . متناسقة كلها مع محور السورة الأصيل . ومع القصتين الرئيسيتين فى السورة : قصة موسى وفرعون . وقصة قارون . وقد مضت الأولى . فلنستعرض الثانية بعد تلك التعقيبات وهذه الجولات .

« إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ، وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ ، إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ : لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ، وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ، وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ، وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * قَالَ : إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي . أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ؟ وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ .

« فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا : يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ ، إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ : وَيْلَكُمْ ! ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ، وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ .

« فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ ، فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ * وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ : وَيْ ! كَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ، لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا . وَيْ ! كَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ .

« تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » ..

مضت مطالع السورة بقصة موسى وفرعون ، وقد عرضت فيها قوة السلطان والحكم ، وكيف باءت بالبوار مع البغى والظلم ، والكفران بالله ، والبعد عن هداه . والآن تجىء قصة قارون لتعرض سلطان المال والعلم ، وكيف ينتهى بالبوار مع البغى والبطر ، والاستكبار على الخلق وجحود نعمة الخالق . وتقرر حقيقة القيم ، فترخص من قيمة المال والزينة إلى جانب قيمة الإيمان والصلاح ؛ مع الاعتدال والتوازن فى الاستمتاع بطيبات الحياة دون علو فى الأرض ولا فساد .

ولا يحدد القرآن زمان القصة ولا مكانها ؛ إنما يكتفى بأن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم . فهل وقعت هذه القصة وبنو إسرائيل وموسى فى مصر قبل الخروج ؟ أم وقعت بعد الخروج فى حياة موسى ؟ أم وقعت فى بنى إسرائيل من بعد موسى ؟ هناك روايات تقول : إنه كان ابن عم لموسى — عليه السلام — وأن الحادث وقع فى زمان موسى . ويزيد بعضها فيذكر أن قارون آذى موسى ، ودبر له مكيدة ليلصق به تهمة الفاحشة بامرأة معينة فى مقابل رشوة من المال ، فبرأ الله موسى وأذن له فى قارون ، فخسفت به الأرض ..

ولسنا فى حاجة إلى كل هذه الروايات ، ولا إلى تحديد الزمان والمكان . فالقصة كما وردت فى القرآن كافية لأداء الغرض منها فى سياق السورة ، ولتقرير القيم والقواعد التى جاءت لتقريرها . ولو كان تحديد زمانها ومكانها وملابساتها يزيد فى دلالتها شيئا ما ترك

تحديدها . فلنستعرضها إذن فى صورتها القرآنية، بعيدة عن تلك الروايات التى لا طائل وراءها..

* * *

« إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم ؛ وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة . إذ قال له قومه : لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين . قال : إنما أوتيته على علم عندى » ..

هكذا تبدأ القصة فتعين اسم بطلها « قارون » وتحدد قومه « قوم موسى » وتقرر مسلكه مع قومه ، وهو مسلك البغى « فبغى عليهم » وتشير إلى سبب هذا البغى وهو الثراء :

« وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة » ..

ثم تمضى بعد ذلك فى استعراض الأحداث والأقوال والانفعالات التى صاحبتها فى النفوس .

لقد كان قارون من قوم موسى ، فآتاه الله مالا كثيرا ، يصور كثرته بأنه كنوز — والكنز هو المخبوء المدخر من المال الفائض عن الاستعمال والتداول — وبأن مفاتح هذه الكنوز تعيي المجموعة من أقوياء الرجال . . من أجل هذا بغى قارون على قومه . ولا يذكر فيم كان البغى ، ليدعه مجهلا يشمل شتى الصور . فربما بغى عليهم بظلمهم وغصبهم أرضهم وأشياءهم — كما يصنع طغاة المال فى كثير من الأحيان — وربما بغى عليهم بحرمانهم حقهم فى ذلك المال . حق الفقراء فى أموال الأغنياء ، كى لا يكون دولة بين الأغنياء وحدهم ومن حولهم محاويج إلى شىء منه ، فتفسد القلوب ، وتفسد الحياة . وربما بغى عليهم بهذه وبغيرها من الأسباب .

وعلى أية حال فقد وجد من قومه من يحاول رده عن هذا البغى ، ورجعه إلى النهج القويم ، الذى يرضاه الله فى التصرف بهذا الثراء ؛ وهو نهج لا يحرم الأثرياء ثراءهم ؛ ولا يحرمهم المتاع المعتدل بما وهبهم الله من مال ؛ ولكنه يفرض عليهم القصد والاعتدال ؛ وقبل ذلك يفرض عليهم مراقبة الله الذى أنعم عليهم ، ومراعاة الآخرة وما فيها من حساب :

« إذ قال له قومه : لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض . إن الله لا يحب المفسدين » .

وفي هـذا القول جماع مافى المنهج الإلهي القويم من قيم وخصائص تفرده بين سائر مناهج الحياة .

« لا تفرح » . . فرح الزهو المنبعث من الاعتزاز بالمال ، والاحتفال بالثراء ، والتعلق بالـكنوز ، والابتهاج بالملك والاستحواذ .. لا تفرح فرح البطر الذى ينسى المنعم بالمال ؛ وينسى نعمته ، وما يجب لها من الحمد والشكران . لا تفرح فرح الذى يستخفه المال ، فيشغل به قلبه ، ويطير له لبه ، ويتطاول به على العباد . .

« إن الله لا يحب الفرحين » . . فهم يردونه بذلك إلى الله ، الذى لا يحب الفرحين المأخوذين بالمـال ، المتباهين ، المتطاولين بسلطانه على الناس .

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا » .. وفى هذا يتمثل اعتدال المنهج الإلهي القويم . المنهج الذى يعلق قلب واجد المال بالآخرة . ولا يحرمه أن يأخذ بقسط من المتاع فى هذه الحياة . بل يحضه على هذا ويـكلفه إياه تـكليفا ، كى لا يتزهد الزهد الذى يهمل الحياة ويضعفها .

لقد خلق الله طيبات الحياة ليستمتع بها الناس ؛ وليعملوا فى الأرض لتوفيرها وتحصيلها ، فتنمو الحياة وتتجدد ، وتتحقق خلافة الإنسان فى هذه الأرض . ذلك على أن تـكون وجهتهم فى هذا المتاع هى الآخرة ، فلا ينحرفون عن طريقها ، ولا يشغلون بالمتاع عن تـكاليفها . والمتاع فى هذه الحالة لون من ألوان الشـكر للمنعم ، وتقبل لعطاياه ، وانتفاع بها . فهو طاعة من الطاعات يجزى عليها الله بالحسنى .

وهكذا يحقق هذا المنهج التعادل والتناسق فى حياة الإنسان ، ويمكنه من الارتقاء الروحى الدائم من خلال حياته الطبيعية المتعادلة ، التى لا حرمان فيها ، ولا إهدار لمقومات الحياة الفطرية البسيطة .

« وأحسن كما أحسن الله إليك » . . فهذا المال هبة من الله وإحسان . فليقابل بالإحسان فيه . إحسان التقبل وإحسان التصرف ، والإحسان به إلى الخلق ، وإحسان الشعور بالنعمة ، وإحسان الشكران .

« ولا تبغ الفساد فى الأرض » . . الفساد بالبغى والظلم . والفساد بالمتاع المطلق من مراقبة الله ومراعاة الآخرة . والفساد بملء صدور الناس بالحرج والحسد والبغضاء . والفساد

بإنفاق المـال فى غير وجهه أو إمساكه عن وجهه على كل حال .

« إن الله لا يحب المفسدين » . . كما أنه لا يحب الفرحين .

كذلك قال له قومه : فكان رده جملة واحدة ، تحمل شتى معانى الفساد والإفساد :

« قال : إنما أوتيته على علم عندى » !

إنما أوتيت هذا المال استحقاقا على علمى الذى طوع لى جمعه وتحصيله . فما لكم تملون على طريقة خاصة فى التصرف فيه ، وتتحكمون فى ملكيتى الخاصة ، وأنا إنما حصلت هذا المال بجهدى الخاص ، واستحققته بعلمى الخاص ؟

إنها قولة المغرور المطموس الذى ينسى مصدر النعمة وحكمتها ، ويفتنه المال ويعميه الثراء .

وهو نموذج مكرر فى البشرية . فكم من الناس يظن أن علمه وكده هما وحدهما سبب غناه . ومن ثم فهو غير مسؤول عما ينفق ومايمسك ، غير محاسب على مايفسد بالمال ومايصلح، غير حاسب لله حسابا ، ولا ناظر إلى غضبه ورضاه !

والإسلام يعترف بالملكية الفردية ، ويقدر الجهد الفردى الذى بذل فى تحصيلها من وجوه الحلال التى يشرعها ؛ ولا يهون من شأن الجهد الفردى أو يلغيه . ولكنه فى الوقت ذاته يفرض منهجا معينا للتصرف فى الملكية الفردية — كما يفرض منهجا لتحصيلها وتنميتها — وهو منهج متوازن متعادل ، لا يحرم الفرد ثمرة جهده ، ولا يطلق يده فى الاستمتاع به حتى الترف ، ولا فى إمساكه حتى التقتير ؛ ويفرض للجماعة حقوقها فى هذا المـال ، ورقابتها على طرق تحصيله ، وطرق تنميته . وطرق إنفاقه والاستمتاع به . وهو منهج خاص واضح الملامح متميز السمات .

ولكن قارون لم يستمع لنداء قومه ، ولم يشعر بنعمة ربه ، ولم يخضع للمنهج القويم . وأعرض عن هذا كله فى استكبار لئيم وفى بطر ذميم .

ومن ثم جاء التهديد قبل تمام الآية ، ردا على قولته الفاجرة المغرورة :

« أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ؟ ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون » .

فإن كان ذا قوة وذا مال ، فقد أهلك الله من قبله أجيالا كانت أشد منه قوة وأكثر

مالا . وكان عليه أن يعلم هذا . فهذا هو العلم المنجى . فليعلم . وليعلم أنه هو وأمثاله من المجرمين أهون على الله حتى من أن يسألهم عن ذنوبهم . فليسوا هم الحكم ولا الأشهاد !

« ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون » !

* * *

ذلك كان المشهد الأول من مشاهد القصة ، يتجلى فيه البغى والتطاول ، والإعراض عن النصح ، والتعالى على العظة ، والإصرار على الفساد ، والاغترار بالمال ، والبطر الذى يقعد بالنفس عن الشكران .

ثم يجىء المشهد الثانى حين يخرج قارون بزينته على قومه ، فتطير لها قلوب فريق منهم ، وتتهاوى لها نفوسهم ، ويتمنون لأنفسهم مثل ما أوتى قارون ، و يحسون أنه أوتى حظا عظيما يتشهاه المحرومون . ذلك على حين يستيقظ الإيمان فى قلوب فريق منهم فيعتزون به على فتنة المال وزينة قارون ، ويذكرون إخوانهم المبهورين المأخوذين ، فى ثقة وفى يقين :

« فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا : ياليت لنا مثلما أوتى قارون . إنه لذو حظ عظيم . وقال الذين أوتوا العلم : ويلكم ! ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ، ولا يلقاها إلا الصابرون » .

وهكذا وقفت طائفة منهم أمام فتنة الحياة الدنيا وقفة المأخوذ المبهور المتهاوى المتهافت، ووقفت طائفة أخرى تستعلى على هذا كله بقيمة الإيمان ، والرجاء فيما عند الله ، والاعتزاز بثواب الله . والتقت قيمة المال وقيمة الإيمان فى الميزان :

« قال الذين يريدون الحياة الدنيا: ياليت لنا مثل ما أوتى قارون . إنه لذو حظ عظيم » ..

وفى كل زمان ومكان تستهوى زينة الأرض بعض القلوب ، وتبهر الذين يريدون الحياة الدنيا ، ولا يتطلعون إلى ما هو أعلى وأكرم منها ؛ فلا يسألون بأى ثمن اشترى صاحب الزينة زينته ؟ ولا بأى الوسائل نال ما نال من عرض الحياة ؟ من مال أو منصب أو جاه . ومن ثم تتهافت نفوسهم وتتهاوى ، كما يتهافت الذباب على الحلوى ويتهاوى ! ويسيل لعابهم على ما فى أيدى المحظوظين من متاع ، غير ناظرين إلى الثمن الباهظ الذى أدوه ، ولا إلى الطريق الدنس الذى خاضوه ، ولا إلى الوسيلة الخسيسة التى اتخذوها .

فأما المتصلون بالله فلهم ميزان آخر يقيم الحياة ، وفى نفوسهم قيم أخرى غير قيم المال

والزينة والمتاع . وهم أعلى نفسا ، وأكبر قلبا من أن يتهاووا ويتصاغروا أمام قيم الأرض جميعا . ولهم من استعلائهم بالله عاصم من التخاذل أمام جاه العباد . وهؤلاء هم « الذين أوتوا العلم » . العلم الصحيح الذى يقومون به الحياة حق التقويم :

« وقال الذين أوتوا العلم : ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ، ولا يلقاها إلا الصابرون » .

ثواب الله خير من هذه الزينة ، وما عند الله خير مما عند قارون . والشعور على هذا النحو درجة رفيعة لا يلقاها إلا الصابرون . . الصابرون على معايير الناس ومقاييسهم . الصابرون على فتنة الحياة وإغرائها . الصابرون على الحرمان مما يتشهاه الكثيرون . وعندما يعلم الله منهم الصبر كذلك يرفعهم إلى تلك الدرجة . درجة الاستعلاء على كل ما فى الأرض ، والتطلع إلى ثواب الله فى رضى وثقة واطمئنان .

* * *

وعندما تبلغ فتنة الزينة ذروتها ، وتتهافت أمامها النفوس وتتهاوى ، تتدخل يد القدرة لتضع حدا للفتنة ، وترحم الناس الضعاف من إغرائها ، وتحطم الغرور والكبرياء تحطيما . ويجيء المشهد الثالث حاسما فاصلا :

« فخسفنا به وبداره الأرض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله ، وما كان من المنتصرين » . .

هكذا فى جملة قصيرة ، وفى لمحة خاطفة : « فخسفنا به وبداره الأرض » فابتلعته وابتلعت داره ، وهوى فى بطن الأرض التى علا فيها واستطال فوقها جزاء وفاقا . وذهب ضعيفا عاجزا ، لا ينصره أحد ، ولا ينتصر بجاه أو مال .

وهوت معه الفتنة الطاغية التى جرفت بعض الناس ؛ وردتهم الضربة القاضية إلى الله ؛ وكشفت عن قلوبهم قناع الغفلة والضلال . وكان هذا المشهد الأخير :

« وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون : وى ! كأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر . لولا أن من الله علينا لخسف بنا . وى ! كأنه لا يفلح الكافرون » . .

وقفوا يحمدون الله أن لم يستجب لهم ما تمنوه بالأمس ، ولم يؤتهم ما آتى قارون . وهم يرون المصير البائس الذى انتهى إليه بين يوم وليلة . وصحوا إلى أن الثراء ليس آية على رضى

الله . فهو يوسع الرزق على من يشاء من عباده ، ويضيقه لأسباب أخرى غير الرضى والغضب . ولو كان دليل رضاه ما أخذ قارون هذا الأخذ الشديد العنيف . إنما هو الابتلاء الذى قد يعقبه البلاء . وعلموا أن الكافرين لا يفلحون . وقارون لم يجهر بكلمة الكفر ولكن اغتراره بالمال ، ونسبته إلى ما عنده من العلم جعلهم يسلكونه فى عداد الكافرين ، ويرون فى نوع هلاكه أنه هلاك للكافرين .

* * *

ويسدل الستار على هذا المشهد . وقد انتصرت القلوب المؤمنة بتدخل القدرة السافرة . وقد رجحت قيمة الإيمان فى كفة الميزان .. ثم يأخذ فى التعقيب فى أنسب أوان :

« تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا . والعاقبة للمتقين » ..

تلك الآخرة التى تحدث عنها الذين أوتوا العلم . العلم الحق الذى يقوم الأشياء قيمتها الحقيقية . تلك الدار الآخرة العالية الرتبة البعيدة الآفاق . تلك الدار الآخرة « نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا » .. فلا يقوم فى نفوسهم خاطر الاستعلاء بأنفسهم لأنفسهم ؛ ولا يهجس فى قلوبهم الاعتزاز بذواتهم والاعتزاز بأشخاصهم وما يتعلق بها . إنما يتوارى شعورهم بأنفسهم ليملأها الشعور بالله ، ومنهجه فى الحياة . أولئك الذين لا يقيمون لهذه الأرض وأشيائها وأعراضها وقيمها وموازينها حسابا . ولا يبغون فيها كذلك فسادا . أولئك هم الذين جعل الله لهم الدار الآخرة . تلك الدار العالية السامية .

« والعاقبة للمتقين » الذين يخشون الله ويراقبونه ويتحرجون من غضبه ويبتغون رضاه .

وفى تلك الدار الآخرة يقع الجزاء كما كتب الله على نفسه . الحسنة بأضعافها وبما هو خير منها . والسيئة بمثلها رحمة بضعف الخلق وتيسيرا :

« من جاء بالحسنة فله خير منها . ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون » ..

« إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ : رَبِّى أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ ٱلْكِتَابُ إِلا رَحْمَةً مِن رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ * وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ ٱللهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ ، وَٱدْعُ إِلَى رَبِّكَ ، وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللهِ إِلَٰهًا آخَرَ ؛ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ . كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ . لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » ..

والآن وقد انتهى القصص ، وانتهت التعقيبات المباشرة على ذلك القصص . الآن يتوجه الخطاب إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ومن خلفه القلة المسلمة التى كانت يومها بمكة . يتوجه الخطاب إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو مخرج من بلده ، مطارد من قومه ، وهو فى طريقه إلى المدينة لم يبلغها بعد ، فقد كان بالجحفة قريبا من مكة ، قريبا من الخطر ، يتعلق قلبه وبصره ببلده الذى يحبه ، والذى يعز عليه فراقه ، لولا أن دعوته أعز عليه من بلده وموطن صباه ، ومهد ذكرياته ، ومقر أهله . يتوجه الخطاب إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو فى موقفه ذاك :

« إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد » ..

فما هو بتاركك للمشركين ، وقد فرض عليك القرآن وكلفك الدعوة . ماهو بتاركك للمشركين يخرجونك من بلدك الحبيب إليك ، ويستبدون بك وبدعوتك ، ويفتنون المؤمنين من حولك . إنما فرض عليك القرآن لينصرك به فى الموعد الذى قدره ، وفى الوقت الذى فرضه ؛ وإنك اليوم لمخرج منه مطارد ، ولكنك غدا منصور إليه عائد .

وهكذا شاءت حكمة الله أن ينزل على عبده هذا الوعد الأكيد فى ذلك الظرف المكروب ، ليمضى — صلى الله عليه وسلم — فى طريقه آمنا واثقا ، مطمئنا إلى وعد الله الذى يعلم صدقه ، ولا يستريب لحظة فيه .

وإن وعد الله لقائم لكل السالكين فى الطريق ؛ وإنه ما من أحد يؤذى فى سبيل الله ، فيصبر ويستيقن إلا نصره الله فى وجه الطغيان فى النهاية ، وتولى عنه المعركة حين يبذل ما فى وسعه ، ويخلى عاتقه ، ويؤدى واجبه .

« إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد » . ولقد رد موسى من قبل إلى الأرض التى خرج منها هاربا مطاردا . رده فأنقذ به المستضعفين من قومه ، ودمر به فرعون وملأه ، وكانت العاقبة للمهتدين .. فامض إذن فى طريقك ، ودع أمر الحكم فيما بينك وبين قومك لله الذى فرض عليك القرآن :

«قل : ربى أعلم من جاء بالهدى ، ومن هو فى ضلال مبين » ..

ودع الأمر لله يجازى المهتدين والضالين .

وما كان فرض القرآن عليك إلا نعمة ورحمة ؛ وما كان يجول فى خاطرك أن تكون أنت المختار لتلقى هذه الأمانة . وإنه لمقام عظيم ما كنت تتطلع إليه قبل أن توهبه :

« وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك » ..

وهو تقرير قاطع عن عدم تطلع الرسول — صلى الله عليه وسلم — إلى الرسالة ؛ إنما هو اختيار الله . والله يخلق مايشاء ويختار، فذلك الأفق أعلى من أن يفكر فيه بشر قبل أن يختاره الله له ويؤهله لبرقاه . وهو رحمة من الله بنبيه وبالبشرية التى اختاره لهدايتها بهذه الرسالة . رحمة توهب للمختارين لا للمتطلعين . ولقد كان من حوله كثيرون فى العرب وفى بنى إسرائيل يتطلعون إلى الرسالة المنتظرة فى آخر الزمان . ولكن الله — وهو أعلم حيث يجعل رسالته — قد اختار لها من لم يتطلع إليها ولم يرجها ، من دون أولئك الطامعين المتطلعين ، حينما علم منه الاستعداد لتلقى ذلك الفيض العظيم .

ومن ثم يأمره ربه — بما أنعم عليه بهذا الكتاب — ألا يكون ظهيرا للكافرين ؛ ويحذره أن يصدوه عن آيات الله ؛ ويمحض له عقيدة التوحيد خالصة فى وجه الشرك والمشركين .

« فلا تكونن ظهيرا للكافرين ؛ ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك ؛ وادع إلى ربك ، ولا تكونن من المشركين . ولا تدع مع الله إلها آخر ، لا إله إلا هو . كل شىء هالك إلا وجهه . له الحكم وإليه ترجعون » ..

إنه الإيقاع الأخير فى السورة ، يفصل مابين رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وطريقه ومابين الكفر والشرك وطريقه . ويبين لأتباع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — طريقهم إلى يوم القيامة .. الإيقاع الأخير ورسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى طريق هجرته الفاصلة بين عهدين متميزين من عهود التاريخ .

« فلا تكونن ظهيرا للكافرين » .. فما يمكن أن يكون هناك تناصر أو تعاون بين المؤمنين والكافرين . وطريقاهما مختلفان ، ومنهجاهما مختلفان . أولئك حزب الله ، وهؤلاء حزب الشيطان . فعلام يتعاونان ؟ وفيم يتعاونان ؟

« ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك » . . فطريق الكفار دائما أن يصدوا أصحاب الدعوة عن دعوتهم بشتى الطرق والوسائل . وطريق المؤمنين أن يمضوا فى طريقهم لا يلويهم عنها المعوقون ، ولا يصدهم عنها أعداؤهم . وبين أيديهم آيات الله ، وهم عليها مؤتمنون .

« وادع إلى ربك » .. دعوة خالصة واضحة لا لبس فيها ولا غموض . دعوة إلى الله لا لقومية ولا لعصبية ، ولا لأرض ولا لراية . ولا لمصلحة ولا لمغنم ، ولا لتمليق هوى ، ولا لتحقيق شهوة . ومن شاء أن يتبع هذه الدعوة على تجردها فليتبعها ، ومن أراد غيرها معها فليس هذا هو الطريق .

« ولا تكونن من المشركين . ولا تدع مع الله إلها آخر » يؤكد هذه القاعدة مرتين بالنهى عن الشرك والنهى عن اتخاذ إله آخر مع الله . ذلك أنها مفرق الطريق فى العقيدة بين النصاعة والغموض . وعلى هذه القاعدة يقوم بناء هذه العقيدة كلها ، وآدابها وأخلاقها وتكاليفها وتشريعاتها جميعا . وهى المحور الذى يلتف عليه كل توجيه وكل تشريع . ومن ثم هى تذكر قبل كل توجيه وقبل كل تشريع .

ثم يمضى فى التوكيد والتقرير :

« لا إله إلا هو » .. « كل شىء هالك إلا وجهه » .. « له الحكم » .. « وإليه ترجعون » ..

« لا إله إلا هو » .. فلا إسلام إلا لله ، ولا عبودية إلا له ، ولا قوة إلا قوته ، ولا ملاذ إلا حماه .

« كل شىء هالك إلا وجهه » .. فكل شىء زائل . وكل شىء ذاهب . المال والجاه . والسلطان والقوة . والحياة والمتاع . وهذه الأرض ومن عليها . وتلك السماوات وما فيها ومن فيها . وهذا الكون كله ما نعلمه منه وما نجهله .. كله . كله . هالك فلا يبقى إلا وجه الله الباقى . متفردا بالبقاء .

« له الحكم » .. يقضى بما يشاء ، ويحكم كما يشاء ، لا يشركه فى حكمه أحد ، ولا يرد قضاءه أحد ، ولا يقف لأمره أمر . وما يشاؤه فهو الكائن دون سواه .

« وإليه ترجعون » . . فلا مناص من حكمه ، ولا مفر من قضائه ، ولا ملجأ دونه ولا مهرب .

***

وهكذا تختم السورة التي تتجلى فيها يد القدرة سافرة ، تحرس الدعوة إلى الله وتحميها ، وتدمر القوى الطاغية الباغية وتمحوها . تختم بتقرير قاعدة الدعوة : وحدانية الله سبحانه وتفرده بالألوهية والبقاء والحكم والقضاء . ليمضي أصحاب الدعوات في طريقهم على هدى ، وعلى ثقة ، وعلى طمأنينة ، وفي يقين . .

سورة العنكبوت مكية
وآياتها ٦٩

بسم الله الرحمن الرحيم

« الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا : آمَنَّا . وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ؟ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ * أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا ؟ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ! * مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ، إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ .

« وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً ، وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ، إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ .

« وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ : آمَنَّا بِاللهِ ، فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ ، وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ : إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ . أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ؟ * وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ .

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا : اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ ، وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ ، وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ ، وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ » .

سورة العنكبوت مكية . وقد ذكرت بعض الروايات أن الإحدى عشرة آية الأولى مدنية . وذلك لذكر « الجهاد » فيها وذكر « المنافقين » . . ولكننا نرجح أن السورة كلها مكية . وقد ورد فى سبب نزول الآية الثامنة أنها نزلت فى إسلام سعد ابن أبى وقاص كما سيجىء . وإسلام سعد كان فى مكة بلا جدال . وهذه الآية ضمن الآيات الإحدى عشرة التى قيل إنها مدنية . لذلك نرجح مكية الآيات كلها . أما تفسير ذكر الجهاد فيها فيسير . لأنها واردة بصدد الجهاد ضد الفتنة . أى جهاد النفس لتصبر ولا تفتن . وهذا واضح فى السياق . وكذلك ذكر النفاق فقد جاء بصدد تصوير حالة نموذج من الناس .

والسورة كلها متماسكة فى خط واحد منذ البدء إلى الختام .

إنها تبدأ بعد الحروف المقطعة بالحديث عن الإيمان والفتنة ؛ وعن تكاليف الإيمان الحقة التى تكشف عن معدنه فى النفوس . فليس الإيمان كلمة تقال باللسان ، إنما هو الصبر على المكاره والتكاليف فى طريق هذه الكلمة المحفوفة بالمكاره والتكاليف .

ويكاد هذا أن يكون محور السورة وموضوعها ؛ فإن سياقها يمضى بعد ذلك المطلع يستعرض قصص نوح وإبراهيم ولوط وشعيب ، وقصص عاد وثمود وقارون وفرعون وهامان ، استعراضا سريعا يصور ألوانا من العقبات والفتن فى طريق الدعوة إلى الإيمان . على امتداد الأجيال .

ثم يعقب على هذا القصص وما تكشف فيه من قوى مرصودة فى وجه الحق والهدى ، بالتصغير من قيمة هذه القوى والتهوين من شأنها ، وقد أخذها الله جميعا :

« فكلا أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا » . .

ويضرب لهذه القوى كلها مثلا مصورا يجسم وهنها وتفاهتها :

« مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا ، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » .

ويربط بعد ذلك بين الحق الذى فى تلك الدعوات والحق الذى فى خلق السماوات والأرض؛ ثم يوحد بين تلك الدعوات جميعا ودعوة محمد — صلى الله عليه وسلم — فكلها من عند الله . وكلها دعوة واحدة إلى الله . ومن ثم يمضى فى الحديث عن الكتاب الأخير وعن استقبال

المشركين له ؟ وهم يطلبون الخوارق غير مكتفين بهذا الكتاب وما فيه من رحمة وذكرى لقوم يؤمنون . ويستعجلون بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين . ويتناقضون فى منطقهم : « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله ! » . . « ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ليقولن الله ! » . . « فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين » . . ولكنهم مع هذا كله يشركون بالله ويفتنون المؤمنين .

وفى ثنايا هذا الجدل يدعو المؤمنين إلى الهجرة فرارا بدينهم من الفتنة ، غير خائفين من الموت ، إذ «كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا يرجعون» . غير خائفين من فوات الرزق : « وكأى من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم » ..

ويختم السورة بتمجيد المجاهدين فى الله وطمأنتهم على الهدى وتثبيتهم : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين » . . فيلتئم الختام مع المطلع وتتضح حكمة السياق فى السورة ، وتماسك حلقاتها بين المطلع والختام ، حول محورها الأول وموضوعها الأصيل .

***

ويمضى سياق السورة حول ذلك المحور الواحد فى ثلاثة أشواط :

الشوط الأول يتناول حقيقة الإيمان ، وسنة الابتلاء والفتنة ، ومصير المؤمنين والمنافقين والكافرين . ثم فردية التبعة فلا يحمل أحد عن أحد شيئا يوم القيامة : « وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون » . .

والشوط الثانى يتناول القصص الذى أشرنا إليه ، وما يصوره من فتن وعقبات فى طريق الدعوات والدعاة ، والتهوين من شأنها فى النهاية حين تقاس إلى قوة الله . ويتحدث عن الحق الكامن فى دعوة الرسل ، وهو ذاته الحق الكامن فى خلق السماوات والأرض . وكله من عند الله .

والشوط الثالث يتناول النهى عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالحسنى . إلا الذين ظلموا منهم. وعن وحدة الدين كله ، واتحاده مع هذا الدين الأخير الذى يجحد به الكافرون ، ويجادل فيه المشركون . ويختم بالتثبيت والبشرى والطمأنينة للمجاهدين فى الله المهديين إلى سبل الله : « وإن الله لمع المحسنين » . .

***

ويتخلل السورة من المطلع إلى الختام إيقاعات قوية عميقة حول معنى الإيمان وحقيقته . تهز الوجدان هزا . وتقفه أمام تكاليف الإيمان وقفة جد صارم ؛ فإما النهوض بها وإما النكوص عنها . وإلا فهو النفاق الذى يفضحه الله .

وهى إيقاعات لاسبيل إلى تصويرها بغير النصوص القرآنية التى وردت فيها . فنكتفى بالإشارة إليها هنا حتى نستعرضها فى موضعها مع السياق .

* * *

« ألف . لام . ميم » . .

الحروف المقطعة التى اخترنا فى تفسيرها أنها للتنبيه إلى أنها مادة الكتاب الذى أنزله الله على رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مؤلفا من مثل هذه الحروف ، المألوفة للقوم ، الميسرة لهم ليؤلفوا منها ما يشاؤون من القول ؛ ولكنهم لا يملكون أن يؤلفوا منها مثل هذا الكتاب . لأنه من صنع الله لا من صنع إنسان .

وقد قلنا من قبل : إن السور التى صدرت بهذه الحروف تتضمن حديثا عن القرآن ، إما مباشرة بعد هذه الحروف ، وإما فى ثنايا السورة ، كما هو الحال فى هذه السورة . فقد ورد فيها : « اتل ما أوحى إليك من الكتاب » . . « وكذلك أنزلنا إليك الكتاب » . . « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك » . . « أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » . . مما يتمشى مع القاعدة التى اخترناها لتفسير هذه الأحرف فى افتتاح السور .

وبعد هذا الافتتاح يبدأ الحديث عن الإيمان ، والفتنة التى يتعرض لها المؤمنون لتحقيق هذا الإيمان ؛ وكشف الصادقين والكاذبين بالفتنة والابتلاء :

« أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا : آمنا وهم لا يفتنون ؟ ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » .

إنه الإيقاع الأول فى هذا المقطع القوى من السورة . يساق فى صورة استفهام استنكارى لمفهوم الناس للإيمان ، وحسبانهم أنه كلمة تقال باللسان .

« أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا : آمنا وهم لا يفتنون ؟ » . .

إن الإيمان ليس كلمة تقال إنما هو حقيقة ذات تكاليف ؛ وأمانة ذات أعباء ؛ وجهاد يحتاج إلى صبر ، وجهد يحتاج إلى احتمال . فلا يكفي أن يقول الناس : آمنا . وهم لا يتركون لهذه الدعوى ، حتى يتعرضوا للفتنة فيثبتوا عليها ويخرجوا منها صافية عناصرهم خالصة قلوبهم . كما تفتن النار الذهب لتفصل بينه وبين العناصر الرخيصة العالقة به ـ وهذا هو أصل الكلمة اللغوى وله دلالته وظله وإيحاؤه ـ وكذلك تصنع الفتنة بالقلوب .

هذه الفتنة على الإيمان أصل ثابت ، وسنة جارية ، فى ميزان الله سبحانه :

« ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » . .

والله يعلم حقيقة القلوب قبل الابتلاء ؛ ولكن الابتلاء يكشف فى عالم الواقع ما هو مكشوف لعلم الله ، مغيب عن علم البشر ؛ فيحاسب الناس إذن على ما يقع من عملهم لا على مجرد ما يعلمه سبحانه من أمرهم . وهو فضل من الله من جانب ، وعدل من جانب ، وتربية للناس من جانب ، فلا يأخذوا أحدا إلا بما استعلن من أمره ، وبما حققه فعله . فليسوا بأعلم من الله بحقيقة قلبه !

ونعود إلى سنة الله فى ابتلاء الذين يؤمنون وتعريضهم للفتنة حتى يعلم الذين صدقوا منهم ويعلم الكاذبين .

إن الإيمان أمانة الله فى الأرض ، لا يحملها إلا من هم لها أهل وفيهم على حملها قدرة ، وفى قلوبهم تجرد لها وإخلاص . وإلا الذين يؤثرونها على الراحة والدعة ، وعلى الأمن والسلامة ، وعلى المتاع والإغراء . وإنها لأمانة الخلافة فى الأرض ، وقيادة الناس إلى طريق الله ، وتحقيق كلمته فى عالم الحياة . فهى أمانة كريمة ؛ وهى أمانة ثقيلة ؛ وهى من أمر الله يضطلع بها الناس ؛ ومن ثم تحتاج إلى طراز خاص يصبر على الابتلاء .

ومن الفتنة أن يتعرض المؤمن للأذى من الباطل وأهله ؛ ثم لا يجد النصير الذى يسانده ويدفع عنه ، ولا يملك النصرة لنفسه ولا المنعة ؛ ولا يجد القوة التى يواجه بها الطغيان . وهذه هى الصورة البارزة للفتنة ، المعهودة فى الذهن حين تذكر الفتنة . ولكنها ليست أعنف صور الفتنة . فهناك فتن كثيرة فى صور شتى ، ربما كانت أمر وأدهى .

هناك فتنة الأهل والأحباء الذين يخشى عليهم أن يصيبهم الأذى بسببه ، وهو لا يملك عنهم دفعا . وقد يهتفون به ليسالم أو ليستسلم ؛ وينادونه باسم الحب والقرابة ، واتقاء الله فى الرحم

التى يعرضها للأذى أو الهلاك . وقد أشير فى هذه السورة إلى لون من هذه الفتنة مع الوالدين وهو شاق عسير .

وهناك فتنــة إقبال الدنيا على المبطلين ، ورؤية الناس لهم ناجحين مرموقين ، تهتف لهم الدنيا ، وتصفق لهم الجماهير ، وتتحطم فى طريقهم العوائق ، وتصاغ لهم الأمجاد ، وتصفو لهم الحياة . وهو مهمل منـكر لا يحس به أحد ، ولا يحامى عنه أحد ، ولا يشعر بقيمة الحق الذى معه إلا القليلون من أمثاله الذين لا يملـكون من أمر الحياة شيئا .

وهنالك فتنة الغربة فى البيئة والاستيحاش بالعقيدة ، حين ينظر المؤمن فيرى كل ما حوله وكل من حوله غارقا فى تيار الضلالة ؛ وهو وحده موحش غريب طريد .

وهناك فتنة من نوع آخر قد نراها بارزة فى هــذه الأيام . فتنة أن يجد المؤمن أمما ودولا غارقة فى الرذيلة ، وهى مع ذلك راقية فى مجتمعها ، متحضرة فى حياتها ، يجد الفرد فيها من الرعاية والحماية مايناسب قيمة الإنسان . ويجدها غنية قوية ، وهى مشاقة لله !

وهنالك الفتنة الـكبرى . أكبر من هذا كله وأعنف . فتنة النفس والشهوة . وجاذبيــة الأرض ، وثقلة اللحم والدم ، والرغبة فى المتاع والسلطان ، أو فى الدعة والاطمئنان . وصعوبة الاستقامة على صراط الإيمان والاستواء على مرتقاه ، مع المعوقات والمثبطات فى أعماق النفس ، وفى ملابسات الحياة ، وفى منطق البيئة ، وفى تصورات أهل الزمان !

فإذا طال الأمد ، وأبطأ نصر الله ، كانت الفتنة أشد وأقسى . وكان الابتلاء أشد وأعنف . ولم يثبت إلا من عصم الله . وهؤلاء هم الذين يحققون فى أنفسهم حقيقة الإيمان ، ويؤتمنون على تلك الأمانة الـكبرى ، أمانة السماء فى الأرض ، وأمانة الله فى ضمير الإنسان .

وما بالله ــ حاشا لله ــ أن يعذب المؤمنين بالابتلاء ، وأن يؤذيهم بالفتنة . ولـكنه الإعداد الحقيقى لتحمل الأمانة . فهى فى حاجة إلى إعداد خاص لايتم إلا بالمعاناة العملية للمشاق ؛ وإلا بالاستعلاء الحقيقى على الشهوات ، وإلا بالصبر الحقيقى على الآلام ، وإلا بالثقة الحقيقية فى نصر الله أو فى ثوابه ، على الرغم من طول الفتنة وشدة الابتلاء .

والنفس تصهرها الشدائد فتنفى عنها الخبث ؛ وتستجيش كامن قواها المذخورة فتستيقظ وتتجمع . وتطرقها بعنف وشدة فيشتد عودها ويصلب ويصقل . وكذلك تفعل الشدائد

بالجماعات ، فلا يبقى صامدا إلا أصلبها عودا ، وأقواها طبيعة ، وأشدها اتصالا بالله ، وثقة فيما عنـده من الحسنيين : النصر أو الأجر ، وهؤلاء هم الذين يسلَّمون الراية فى النهاية . مؤتمنين عليها بعد الاستعداد والاختبار .

وإنهم ليتسلمون الأمانة وهى عزيزة على نفوسهم بما أدوا لها من غالى الثمن ؛ وبما بذلوا لها من الصبر على المحن ؛ وبما ذاقوا فى سبيلها من الآلام والتضحيات . والذى يبذل من دمه وأعصابه ، ومن راحته واطمئنانه ، ومن رغائبه ولذاته . ثم يصبر على الأذى والحرمان ؛ يشعر ولاشك بقيمة الأمانة التى بذل فيها ما بذل ؛ فلا يسلمها رخيصة بعـد كل هـذه التضحيات والآلام .

فأما انتصار الإيمان والحق فى النهـاية فأمر تـكفل به وعـد الله . وما يشك مؤمن فى وعد الله . فإن أبطأ فلحـكمة مقدرة ، فيها الخير للايمان وأهله . وليس أحـد بأغير على الحق وأهله من الله . وحسب المؤمنـين الذين تصيبهم الفتنة ، ويقع عليهم البلاء ، أن يكونوا هم المختارين من الله ، ليـكونوا أمناء على حق الله . وأن يشهد الله لهم بأن فى دينهم صلابة فهو يختارهم للابتلاء :

جاء فى الصحيح : « أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان فى دينه صلابة زيد له فى البلاء » . .

وأما الذين يفتنون المؤمنين ، ويعملون السيئات ، فماهم بمفلتين من عذاب الله ولا ناجين . مهما انتفخ باطلهم وانتفش ، وبدا عليـه الانتصار والفلاح . وعـد الله كذلك وسنته فى نهاية المطاف :

« أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ؟ ساء ما يحكمون ! » . .

فلا يحسبن مفسد أنه مفلت ولاسابق ، ومن يحسب هذا فقد ساء حكمه ، وفسد تقديره ، واختل تصوره . فإن الله الذى جعل الابتلاء سنة ليمتحن إيمان المؤمن ويميز بين الصادقين والـكاذبين ؛ هو الذى جعل أخذ المسيئين سنة لاتتبدل ولا تتخلف ولا تحيد .

وهـذا هو الإيقاع الثانى فى مطلع السورة ، الذى يوازن الإيقاع الأول ويعادله . فإذا كانت الفتنه سنة جارية لامتحان القلوب وتمحيص الصفوف ، فخيبة المسيئين وأخذ المفسدين سنة جارية لابد أن تجىء .

أما الإيقاع الثالث فيتمثل فى تطمين الذين يرجون لقاء الله ، ووصل قلوبهم به فى ثقة وفى يقين :

« من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت ، وهو السميع العليم » ..

فلتقر القلوب الراجية فى لقاء الله ولتطمئن ؛ ولتنتظر ما وعدها الله إياه ، انتظار الواثق المستيقن ؛ ولتتطلع إلى يوم اللقاء فى شوق ولكن فى يقين .

والتعبير يصور هذه القلوب المتطلعة إلى لقاء الله صورة موحية . صورة الراجى المشتاق ، الوصول بما هناك . ويجيب على التطلع بالتوكيد المريح . ويعقب عليه بالطمأنينة الندية ، يدخلها على تلك القلوب . فإن الله يسمع لها ، ويعلم تطلعها : « وهو السميع العليم » .

والإيقاع الرابع يواجه القلوب التى تحتمل تكاليف الإيمان ، ومشاق الجهاد ، بأنها إنما تجاهد لنفسها ولخيرها ولاستكمال فضائلها ، ولإصلاح أمرها وحياتها ؛ وإلا فما بالله من حاجة إلى أحد ، وإنه لغنى عن كل أحد :

« ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه ، إن الله لغنى عن العالمين » ..

فإذا كتب الله على المؤمنين الفتنة وكلفهم أن يجاهدوا أنفسهم لتثبت على احتمال المشاق ، فإنما ذلك لإصلاحهم ، وتكميلهم ، وتحقيق الخير لهم فى الدنيا والآخرة . والجهاد يصلح من نفس المجاهد وقلبه ؛ ويرفع من تصوراته وآفاقه ؛ ويستعلى به على الشح بالنفس والمال ، ويستجيش أفضل مافى كيانه من مزايا واستعدادات . وذلك كله قبل أن يتجاوز به شخصه إلى الجماعة المؤمنة ، وما يعود عليها من صلاح حالها ، واستقرار الحق بينها ، وغلبة الخير فيها على الشر ، والصلاح فيها على الفساد .

« ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه » .

فلا يقفن أحد فى وسط الطريق ، وقد مضى فى الجهاد شوطا ؛ يطلب من الله ثمن جهاده ؛ ويمن عليه وعلى دعوته ، ويستبطىء المكافأة على ماناله ! فإن الله لا يناله من جهاده شىء . وليس فى حاجة إلى جهد بشر ضعيف هزيل : « إن الله لغنى عن العالمين». وإنما هو فضل من الله أن يعينه فى جهاده ، وأن يستخلفه فى الأرض به ، وأن يأجره فى الآخرة بثوابه :

« والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ، ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون » .

فليطمئن المؤمنون العاملون على مالهم عند الله ، من تكفير للسيئات ، وجزاء على الحسنات . وليصبروا على تكاليف الجهاد ؛ وليثبتوا على الفتنة والابتلاء ؛ فالأمل المشرق والجزاء الطيب ، ينتظرانهم فى نهاية المطاف . وإنه لحسب المؤمن حتى لو فاته فى الحياة الانتصاف .

* * *

ثم يجىء إلى لون من ألوان الفتنة أشرنا إليه فى مطلع السورة : فتنة الأهل والأحباء . فيفصل فى الموقف الدقيق بالقول الحازم الوسط ، لا إفراط فيه ولا تفريط :

« ووصينا الإنسان بوالديه حسنا . وإن جاهداك لتشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما ، إلىّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون . والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم فى الصالحين » . .

إن الوالدين لأقرب الأقرباء . وإن لهما لفضلا ، وإن لهما لرحما ؛ وإن لهما لواجبا مفروضا : واجب الحب والكرامة والاحترام والكفالة . ولكن ليس لهما من طاعة فى حق الله . وهذا هو الصراط : « ووصينا الإنسان بوالديه حسنا . وإن جاهداك لتشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما » . .

إن الصلة فى الله هى الصلة الأولى ، والرابطة فى الله هى العروة الوثقى . فإن كان الوالدان مشركين فلهما الإحسان والرعاية ، لا الطاعة ولا الاتباع . وإن هى إلا الحياة الدنيا ثم يعود الجميع إلى الله .

« إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » ..

ويفصل مابين المؤمنين والمشركين . فإذا المؤمنون أهل ورفاق ، ولو لم يعقد بينهم نسب ولا صهر :

« والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم فى الصالحين » ..

وهكذا يعود الموصولون بالله جماعة واحدة ، كما هم فى الحقيقة ؛ وتذهب روابط الدم والقرابة والنسب والصهر ، وتنتهى بانتهاء الحياة الدنيا ، فهى روابط عارضة لا أصيلة ، لانقطاعها عن العروة الوثقى التى لا انفصام لها.

روى الترمذى عند تفسير هذه الآية أنها نزلت فى سعد ابن أبى وقاص ـ رضى الله عنه ـ وأمه حمنة بنت أبى سفيان ، وكان بارا بأمه . فقالت له : ماهذا الدين الذى أحدثت ؟ والله لا آكل ولا أشرب حتى ترجع إلى ما كنت عليه أو أموت ، فتتعير بذلك أبد الدهر ، يقال : ياقاتل أمه . ثم إنها مكثت يوما وليلة لم تأكل ولم تشرب ، فجاء سعد إليها وقال : يا أماه لو كانت لك مئة نفس فخرجت نفسا نفسا ما تركت دينى ، فكلى إن شئت ، وإن شئت فلا تأكلى . فلما أيست منه أكلت وشربت . فأنزل الله هذه الآية آمرا بالبر بالوالدين والإحسان إليهما ، وعدم طاعتهما فى الشرك .

وهكذا انتصر الإيمان على فتنة القرابة والرحم ؛ واستبقى الإحسان والبر . وإن المؤمن لعرضة لمثل هذه الفتنة فى كل آن ؛ فليكن بيان الله وفعل سعد هما راية النجاة والأمان .

* * *

ثم يرسم صورة كاملة لنموذج من النفوس فى استقبال فتنة الإيذاء بالاستخذاء ، ثم الادعاء العريض عند الرخاء . يرسمها فى كلمات معدودات ، صورة واضحة الملامح بارزة السمات :

« ومن الناس من يقول : آمنا بالله . فإذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله . ولئن جاء نصر من ربك ليقولن : إنا كنا معكم . أو ليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين ؟ وليعلمن الله الذين آمنوا ، وليعلمن المنافقين » ..

ذلك النموذج من الناس ، يعلن كلمة الإيمان فى الرخاء يحسبها خفيفة الحمل ، هينة المؤونة ، لا تكلف إلا نطقها باللسان ، « فإذا أوذى فى الله » بسبب الكلمة التى قالها وهو آمن معافى « جعل فتنة الناس كعذاب الله » فاستقبلها فى جزع ، واختلت فى نفسه القيم ، واهتزت فى ضميره العقيدة ؛ وتصور أن لا عذاب بعد هذا الأذى الذى يلقاه ، حتى عذاب الله ؛ وقال فى نفسه : ها هو ذا عذاب شديد أليم ليس وراءه شىء ، فعلام أصبر على الإيمان ، وعذاب الله لا يزيد على ما أنا فيه من عذاب ؟ وإن هو إلا الخلط بين أذى يقدر على مثله البشر ، وعذاب الله الذى لا يعرف أحد مداه .

هذا موقف ذلك النموذج من الناس فى استقبال الفتنة فى ساعة الشدة .

« ولئن جاء نصر من ربك ليقولن : إنا كنا معكم » !

إنا كنا معكم .. وذلك كان موقفهم فى ساعة العسرة من التخاذل والتهافت والتهاوى ،

وسوء التصوير وخطأ التقدير . ولكن حين يجيء الرخاء تنبت الدعوى العريضة ، وينتفش المزوون المتخاذلون ، ويستأسد الضعفاء المهزومون ، فيقولون : « إنا كنا معكم » !

« أو ليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين ؟ » . .

أو ليس يعلم ما تنطوى عليه تلك الصدور من صبر أو جزع ، ومن إيمان أو نفاق ؟ فمن الذى يخدعه هؤلاء وعلى من يموهون ؟

« وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين » . .

وليكشفنهم فيعرفون ؛ فما كانت الفتنة إلا ليتبين الذين آمنوا ويتبين المنافقون .

ونقف لحظة أمام التعبير القرآنى الدقيق وهو يكشف عن موضع الخطأ فى هذا النموذج من الناس حين يقول :

« جعل فتنة الناس كعذاب الله » . .

فليست الغلطة أن صبرهم قد ضعف عن احتمال العذاب ، فمثل هذا يقع للمؤمنين الصادقين فى بعض اللحظات ــ وللطاقة البشرية حدود ــ ولكنهم يظلون يفرقون تفرقة واضحة فى تصورهم وشعورهم بين كل ما يملكه البشر لهم من أذى وتنكيل ، وبين عذاب الله العظيم ؛ فلا يختلط فى حسهم أبدا عالم الفناء الصغير وعالم الخلود الكبير ، حتى فى اللحظة التى يتجاوز عذاب الناس لهم مدى الطاقة وجهد الاحتمال . . . إن الله فى حس المؤمن لا يقوم له شىء ، مهما تجاوز الأذى طاقته واحتماله . . وهذا هو مفرق الطريق بين الإيمان فى القلوب والنفاق .

***

وأخيرا يعرض فتنة الإغواء والإغراء ؛ ويعرض معها فساد تصور الذين كفروا للتبعة والجزاء ؛ ويقرر فردية التبعة وشخصية الجزاء . وهو المبدأ الإسلامى الكبير ، الذى يحقق العدل فى أجلى مظاهره ، وأفضل أوضاعه :

« وقال الذين كفروا للذين آمنوا : اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم . وماهم بحاملين من خطاياهم من شىء . إنهم لكاذبون . وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ، وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون » . .

وقد كان الذين كفروا يقولون هـذا تمشيا مع تصورهم القبلى فى احتمال العشيرة للديات المشتركة والتبعات المشتركة . يحسبون أنهم قادرون على احتمال جريرة الشرك بالله عن سواهم وإعفائهم منها . ذلك إلى التهكم على قصة الجزاء فى الآخرة إطلاقا :

« اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم » ..

ومن ثم يرد عليهم الرد الحاسم ، فيرد كل إنسان إلى ربه فردا ، يؤاخذه بعمله ، لا يحمل أحد عنه شيئا :

« وماهم بحاملين من خطاياهم من شىء » ..

ويجبههم بما فى قولهم هذه من كذب وادعاء :

« وإنهم لـكاذبون » ..

ويحملهم وزر ضلالهم وشركهم وافترائهم ، ووزر إضلالهم للآخرين . دون أن يعفى هؤلاء من تبعة الضلال :

« وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم . وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون » .

ويغلق هـذا الباب من أبواب الفتنه ؛ فيعلم النـاس أن الله لا يحاسبهم جماعات . إنما يحاسبهم أفرادا ، وأن كل امرىء بما كسب رهين ..

*

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ ، فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً ، فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ ، وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ .

« وَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ : اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ ، ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً ، إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً ، فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ ، وَاعْبُدُوهُ ، وَاشْكُرُوا لَهُ ، إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ، وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ .

«أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ؟ إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ * قُلْ : سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ . ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ، إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ ، وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ * وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ، وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ وَلِقَائِهِ أُولٰئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي ، وَأُولٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

« فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا : اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ . فَأَنْجَاهُ اللهُ مِنَ النَّارِ . إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَقَالَ : إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ ، وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ، وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ ، وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ .

« فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ، وَقَالَ : إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي ، إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ، وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ .

« وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ : أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ ، وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ ، وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ ؟ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ : إِلَّا أَنْ قَالُوا : ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ : رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ .

« وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا : إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هٰذِهِ الْقَرْيَةِ ، إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ * قَالَ : إِنَّ فِيهَا لُوطًا . قَالُوا : نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا ، لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ .

« وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ ، وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً ، وَقَالُوا : لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ، إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .

« وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً ، فَقَالَ : يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ، وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ ، وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ، فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ .

« وَعَادًا وَثَمُودَ ، وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ، وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ .

« وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ، وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ، فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ .

« فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ . فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ، وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

« مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً ، وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ، وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ .

« خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ * اتْلُ مَاأُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ ، وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ » ..

انتهى الشوط الأول بالحديث عن سنة الله فى ابتلاء الذين يختارون كلمة الإيمان ، وفتنتهم حتى يعلم الذين صدقوا منهم ويعلم الكاذبين . وقد أشار إلى الفتنة بالأذى ، والفتنة بالقرابة ، والفتنة بالإغواء والإغراء .

وفى هذا الشوط يعرض نماذج من الفتن التى اعترضت دعوة الإيمان فى تاريخ البشرية الطويل من لدن نوح عليه السلام . يعرضها ممثلة فيما لقيه الرسل حملة دعوة الله منذ فجر البشرية . مفصلا بعض الشىء فى قصة إبراهيم ولوط ، مجملا فيما عداها .

وفى هذا القصص تتمثل ألوان من الفتن ، ومن الصعاب والعقبات فى طريق الدعوة .

ففى قصة نوح — عليه السلام — تتبدى ضخامة الجهد وضآلة الحصيلة ، فقد لبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ، ثم لم يؤمن له إلا القليل « فأخذهم الطوفان وهم ظالمون » ..

وفى قصة إبراهيم مع قومه يتبدى سوء الجزاء وطغيان الضلال . فقد حاول هداهم مااستطاع ، وجادلهم بالحجة والمنطق : « فما كان جواب قومه إلا أن قالوا : اقتلوه أو حرقوه ».

وفى قصة لوط يتبدى تبجح الرذيلة واستعلانها ، وسفورها بلا حياء ولا تحرج ، وانحدار البشرية إلى الدرك الأسفل من الانحراف والشذوذ ؛ مع الاستهتار بالنذير : « فما كان جواب قومه إلا أن قالوا : ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين » ..

وفى قصة شعيب مع مدين يتبدى الفساد والتمرد على الحق والعدل ، والتكذيب : « فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين » .

وتذكر الإشارة إلى عاد وثمود بالاعتزاز بالقوة والبطر بالنعمة .

كما تذكر الإشارة إلى قارون وفرعون وهامان بطغيان المال ، واستبداد الحكم ، وتمرد النفاق .

ويعقب على هذا القصص بمثل يضربه لهوان القوى المرصودة فى طريق دعوة الله ، وهى مهما علت واستطالت « كمثل العنكبوت اتخذت بيتا . وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » .

وينتهى هذا الشوط بدعوة الرسول — صلى الله عليه وسلم — أن يتلو الكتاب ، وأن يقيم الصلاة ، وأن يدع الأمر بعد ذلك لله « والله يعلم ماتصنعون » ..

***

« ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، فأخذهم الطوفان وهم ظالمون . فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين » ..

والراجح أن فترة رسالته التى دعا فيها قومه كانت ألف سنة إلا خمسين عاما . وقد سبقتها فترة قبل الرسالة غير محددة ، وأعقبتها فترة كذلك بعد النجاة من الطوفان غير محددة . وهو عمر طويل مديد ، يبدو لنا الآن غير طبيعى ولا مألوف فى أعمار الأفراد . ولكننا نتلقاه من أصدق مصدر فى هذا الوجود — وهذا وحده برهان صدقه — فإذا أردنا له تفسيرا فإننا نستطيع أن نقول : إن عدد البشرية يومذاك كان قليلا ومحدودا ، فليس ببعيد أن يعوض الله هذه الأجيال عن كثرة العدد طول العمر ، لعمارة الأرض وامتداد الحياة . حتى إذا تكاثر الناس وعمرت الأرض لم يعد هناك داع لطول الأعمار . وهذه الظاهرة ملحوظة فى أعمار كثير من الأحياء . فكلما قل العدد وقل النسل طالت الأعمار ، كما فى النسور وبعض الزواحف كالسلحفاة . حتى ليبلغ عمر بعضها مئات الأعوام . بينما الذباب الذى يتوالد بالملايين لا تعيش الواحدة منه أكثر من أسبوعين . والشاعر يعبر عن هذه الظاهرة بقوله :

بغاث الطير أكثرها فراخا وأم الصقر مقلاة نزور(١)

ومن ثم يطول عمر الصقر . وتقل أعمار بغاث الطير . ولله الحكمة البالغة . وكل شىء عنده بمقدار . ولم تثمر ألف سنة — إلا خمسين عاما — غير العدد القليل الذين آمنوا لنوح . وجرف الطوفان الكثرة العظمى وهم ظالمون بكفرهم وجحودهم وإعراضهم عن الدعوة المديدة ، ونجا العدد القليل من المؤمنين ، وهم أصحاب السفينة . ومضت قصة الطوفان والسفينة « آية للعالمين » تحدثهم عن عاقبة الكفر والظلم على مدار القرون .

* * *

وبعد قصة نوح يطوى السياق القرون حتى يصل إلى الرسالة الكبرى . رسالة إبراهيم :

« وإبراهيم إذ قال لقومه : اعبدوا الله واتقوه . ذلكم خير لكم إن كنت تعلمون . إنما تعبدون من دون الله أوثانا ، وتخلقون إفكا . إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه ، واشكروا له ، إليه ترجعون . وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين » ..

لقد دعاهم دعوة بسيطة واضحة لا تعقيد فيها ولا غموض ؛ وهى مرتبة فى عرضها ترتيبا دقيقا يحسن أن يتملاه أصحاب الدعوات ..

(١) بغاث الطير : ضعافه . ومقلاة نزور ، أى مقلة فى الفراخ .

لقد بدأ ببيان حقيقة الدعوة التى يدعوهم إليها :

« اعبدوا الله واتقوه » . .

ثم ثنى بتحبيب هذه الحقيقــة إليهم ، وما تتضمنه من الخير لهم ، لو كانوا يعلمون أين يكون الخير :

« ذلـكم خير لـكم إن كنتم تعلمون » . .

وفى هذا التعقيب ما يحفزهم إلى نفى الجهل عنهم ، واختيار الخير لأنفسهم . وهو فى الوقت ذاته حقيقة عميقة لا مجرد تهييج خطابى !

وفى الخطوة الثالثة بين لهم فساد ماهم عليه من العقيدة من عدة وجوه : أولها أنهم يعبدون من دون الله أوثانا ـ والوثن : التمثــال من الخشب ـ وهى عبادة سخيفة ، وبخاصة إذا كانوا يعدلون بها عن عبادة الله .. وثانيها : أنهم بهذه العبادة لا يستندون إلى برهان أو دليل ، وإنما يخلقون إفـكا وينشئون باطلا ، يخلقونه خلقا بلا سابقة أو مقدمة ، وينشئونه إنشاء من عند أنفسهم بلا أصل ولا قاعدة . . وثالثها : أن هذه الأوثان لا تقدم لهم نفعا ، ولا ترزقهم شيئا :

« إن الذين تعبدون من دون الله لا يملـكون لـكم رزقا » . .

وفى الخطوة الرابعة يوجههم إلى الله ليطلبوا منه الرزق . الأمر الذى يهمهم ويمس حاجتهم:

« فابتغوا عند الله الرزق » . .

والرزق مشغلة النفوس ، وبخاصة تلك التى لم يستغرقها الإيمان . ولـكن ابتغاء الرزق من الله وحده حقيقة لا مجرد استثارة للميول الـكامنة فى النفوس .

وفى النهاية يهتف بهم إلى واهب الأرزاق المتفضل بالنعم ، ليعبدوه ويشـكروه :

« واعبــدوه واشـكروا له » . .

وأخيرا يكشف لهم أنه لامفر من الله ، فمن الخير أن يثوبوا إليه مؤمنين عابدين شاكرين:

« إليه ترجعون » . .

فإن كذبوا ـ بعد ذلك كله ـ فما أهون ذلك ! فلن يضر الله شيئا ، ولن يخسر رسوله شيئا . فقد كذب الـكثيرون من قبل ، وما على الرسول إلا واجب التبليغ :

« وإن تـكذبوا فقد كذب أمم من قبلـكم ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين » . .

وهكذا يأخذهم خطوة خطوة ، ويدخل إلى قلوبهم من مداخلها ، ويوقع على أوتارها فى دقة عميقة ، وهذه الخطوات تعد نموذجا لطريقة الدعوة جديرا بأن يتملاه أصحاب كل دعوة ، لينسجوا على منواله فى مخاطبة النفوس والقلوب .

* * *

وقبل أن يمضى السياق إلى نهاية القصة ، يقف وقفة يخاطب بها كل منكر لدعوة الإيمان بالله على الإطلاق ؛ المكذبين بالرجعة إلى الله والبعث والمآب :

« أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده ؟ إن ذلك على الله يسير . قل : سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ، ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ، إن الله على كل شىء قدير ، يعذب من يشاء ويرحم من يشاء ، وإليه تقلبون . وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء ، وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير . والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتى ، وأولئك لهم عذاب أليم » . .

إنه خطاب لكل منكر لله ولقائه . خطاب دليله هذا الكون ؛ ومجاله السماء والأرض ؛ على طريقة القرآن فى اتخاذ الكون كله معرضا لآيات الإيمان ودلائله ؛ وصفحة مفتوحة للحواس والقلوب ، تبحث فيها عن آيات الله ، وترى دلائل وجوده ووحدانيته ، وصدق وعده ووعيده . ومشاهد الكون وظواهره حاضرة أبدا لا تغيب عن إنسان . ولكنها تفقد جدتها فى نفوس الناس بطول الألفة ؛ ويضعف إيقاعها على قلوب البشر بطول التكرار . فيردهم القرآن الكريم إلى تلك الروعة الغامرة ، وإلى تلك الآيات الباهرة بتوجيهه الموحى ، المحيى للمشاهد والظواهر فى القلوب والضمائر ، ويثير تطلعهم وانتباههم إلى أسرارها وآثارها . ويجعل منها دلائله وبراهينه التى تراها الأبصار وتتأثر بها المشاعر ، ولا يتخذ طرائق الجدل الذهنى البارد والقضايا المنطقية التى لا حياة فيها ولا حركة . . تلك التى وفدت على التفكير الإسلامى من خارجه فظلت غريبة عليه ، وفى القرآن المثل والمنهج والطريق . .

« أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق ؟ ثم يعيده . إن ذلك على الله يسير » . .

وإنهم ليرون كيف يبدئ الله الخلق . يرونه فى النبتة النامية ، وفى البيضة والجنين ، وفى كل مالم يكن ثم يكون ؛ مما لا تملك قدرة البشر مجتمعين ومنفردين أن يخلقوه أو يدعوا أنهم

خالقوه ! وإن سر الحياة وحده لمعجز ، كان وما يزال ؛ معجز فى معرفة منشئه وكيف جاء — ودع عنك أن يحاوله أحد أو يدعيه — ولا تفسير له إلا أنه من صنع الله الذى يبدئ الخلق فى كل لحظة تحت أعين الناس وإدراكهم ، وهم يرون ولا يملكون الإنكار !

فإذا كانوا يرون إنشاء الخلق بأعينهم ؛ فالذى أنشأه يعيده :

« إن ذلك على الله يسير » . .

وليس فى خلق الله شئ عسير عليه تعالى . ولكنه يقيس للبشر بمقاييسهم . فالإعادة أيسر من البدء فى تقديرهم . وإلا فالبدء كالإعادة ، والإعادة كالبدء بالقياس إلى قدرة الله سبحانه . وإنما هو توجه الإرادة وكلمة : كن . فيكون . .

ثم يدعوهم إلى السير فى الأرض ، وتتبع صنع الله وآياته فى الخلق والإنشاء ، فى الجامد والحى سواء ، ليدركوا أن الذى أنشأ يعيد بلا عناء :

« قل : سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ؛ ثم الله ينشئ النشأة الآخرة . إن الله على كل شئ قدير » . .

والسير فى الأرض يفتح العين والقلب على المشاهد الجديدة التى لم تألفها العين ولم يملها القلب . وهى لفتة عميقة إلى حقيقة دقيقة . وإن الإنسان ليعيش فى المكان الذى ألفه فلا يكاد ينتبه إلى شئ من مشاهده أو عجائبه ؛ حتى إذا سافر وتنقل وساح استيقظ حسه وقلبه إلى كل مشهد ، وإلى كل مظهر فى الأرض الجديدة ، مما كان يمر على مثله أو أروع منه فى موطنه دون التفات ولا انتباه . وربما عاد إلى موطنه بحس جديد وروح جديد ليبحث ويتأمل ويعجب بما لم يكن يهتم به قبل سفره وغيبته . وعادت مشاهد موطنه وعجائبها تنطق له بعد ما كان غافلا عن حديثها ؛ أو كانت لا تفصح له بشئ ولا تناجيه !

فسبحان منزل هذا القرآن ، الخبير بمداخل القلوب وأسرار النفوس .

« قل : سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » . .

إن التعبير هنا بلفظ الماضى « كيف بدأ الخلق » بعد الأمر بالسير فى الأرض لينظروا كيف بدأ الخلق . يثير فى النفس خاطرا معينا . . ترى هنالك فى الأرض ما يدل على نشأة الحياة الأولى ، وكيفية بدء الخليقة فيها . كالحفريات التى يتتبعها بعض العلماء اليوم ليعرفوا منها خط

الحياة ؛ كيف نشأت ؟ وكيف انتشرت ؟ وكيف ارتقت ؟ ـ وإن كانوا لم يصلوا إلى شيء فى معرفة سر الحياة : ماهى ؟ ، ومن أين جاءت إلى الأرض ؟ وكيف وجد فيها أول كائن حى ؟ـ ويكون ذلك توجيها من الله للبحث عن نشأة الحياة الأولى والاستدلال به عند معرفتها على النشأة الآخرة ..

ويقوم بجانب هذا الخاطر خاطر آخر . ذلك أن المخاطبين بهذه الآية أول مرة لم يكونوا مؤهلين لمثل هـذا البحث العلمى الذى نشأ حديثا ؛ فلم يكونوا بمستطيعين يومئذ أن يصلوا من ورائه إلى الحقيقـة المقصودة به ـ لو كان ذلك هو المقصود ـ فلا بد أن القرآن كان يطلب منهم أمرا آخر داخلا فى مقدورهم ، يحصلون منه على ماييسر لهم تصور النشأة الآخرة. ويـكون المطلوب حينئذ أن ينظروا كيف تبدأ الحياة فى النبات والحيوان والإنسان فى كل مكان . ويكون السير فى الأرض كما أسلفنا لتنبيه الحواس والمشاعر برؤية المشاهد الجديدة ، ودعوتها إلى التأمل والتدبر فى آثار قدرة الله على إنشاء الحيـاة التى تبرز فى كل لحظة من لحظات الليل والنهار .

وهناك احتمال أهم يتمشى مع طبيعة هـذا القرآن ؛ وهو أنه يوجه توجيهاته التى تناسب حياة الناس فى أجيالهم جميعا ، ومستوياتهم جميعا ، وملابسات حياتهم جميعا ، ووسائلهم جميعا . ليأخذ كل منها بما تؤهله له ظروف حياته ومقدراته . ويبقى فيها امتداد يصلح لقيادة الحيـاة ونموها أبدا . ومن ثم لا يكون هناك تعارض بين الخاطرين .

هذا أقرب وأولى .

« إن الله على كل شيء قدير » ..

يبدأ الحياة ويعيدها بهـذه القدرة المطلقة التى لا تتقيد بتصورات البشر القاصره ، وما يحسبونه قوانين يقيسون عليها الممكن وغير الممكن ، بما يعرفونه من تجاربهم المحدودة !

ومن قدرة الله على كل شيء: تعذيبه لمن يشاء ورحمته لمن يشاء ، وإليه وحده المآب ؛ لا يعجزه أحد ، ولا يمتنع عليه أحد :

« يعذب من يشاء ويرحم من يشاء ، وإليه تقلبون . وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء . وما لـكم من دون الله من ولى ولا نصير » . .

والعذاب والرحمة يتبعان مشيئة الله ؛ من حيث أنه بين طريق الهدى وطريق الضلال ؛

وخلق للإنسان من الاستعداد ما يختار به هذا أو ذاك ، وييسر له الطريقين سواء ، وهو بعدذلك ،ومايختار غير أن اتجاهه إلىالله ورغبته فىهداه ، ينتهيان به إلىعون الله له ـ كما كتب على نفسه ـ وإعراضه عن دلائل الهدى وصده عنها يؤديان به إلى الانقطاع والضلال . ومن ثم تكون الرحمة ويكون العذاب .

« وإليه تقلبون » ..

تعبير عن المآب فيه عنف ، يناسب المعنى بعده :

« وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء » ..

فليس لكم من قوة فى هذا الوجود تمتنعون بها من الإنقلاب إلى الله . لا من قوتكم فى الأرض ، ولا من قوة ما تعبدونه أحيانا من الملائكة والجن وتحسبون له قوة فى السماء .

« وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير » . .

وأين من دون الله الولى والنصير؟ أين الولى والنصير من الناس ؟ أو من الملائكة والجن ؟ وكلهم عباد من خلق الله لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا فوق أن يملكوا لسواهم شيئا ؟

« والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتى وأولئك لهم عذاب أليم » ..

ذلك أنه لا ييأس الإنسان من رحمة الله إلا حين يكفر قلبه ، وينقطع ما بينه وبين ربه . وكذلك هو لا يكفر إلا وقد يئس من اتصال قلبه بالله ، وجفت نداوته ، ولم يعد له إلى رحمة الله سبيل . والعاقبة معروفة : « وأولئك لهم عذاب أليم » ..

* * *

وبعد هذا الخطاب المعترض فى ثنايا القصة ، الذى جاء خطابا لكل منكر لدعوة الإيمان ولقوم إبراهيم ضمنا .. بعد هذا الخطاب يعود لبيان جواب قوم إبراهيم ، فيبدو هذا الجواب غريبا عجيبا ، ويكشف عن تبجح الكفر والطغيان ، بما يملك من قوة ومن سلطان :

« فما كان جواب قومه إلا أن قالوا : اقتلوه أو حرقوه . فأنجاه الله من النار . إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون » ..

اقتلوه أو حرقوه .. ردا على تلك الدعوة الواضحة البسيطة المرتبة التى خاطب بها قلوبهم وعقولهم على النحو الذى بينا قيمته فى عرض الدعوات .

وإذ أن الطغيان أسفر عن وجهه الـكالح ؛ ولم يكن إبراهيم ــ عليه السلام ــ يملك له دفعا، ولا يستطيع منه وقاية. وهو فرد أعزل لا حول له ولا طول . فهنا تتدخل القدرة سافرة كذلك. تتدخل بالمعجزة الخارقة لمـألوف البشر :

« فأنجاه الله من النار » ..

وكان فى نجاته من النار على النحو الخارق الذى تمت به آية لمن تهيأ قلبه للإيمان . ولـكن القوم لم يؤمنوا على الرغم من هذه الآية الخارقة ، فدل هذا على أن الخوارق لا تهدى القلوب، إنما هو الاستعداد للهدى والإيمان :

« إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون » ..

الآية الأولى هى تلك النجاة من النار . والآية الثانية هى عجز الطغيان عن إيذاء رجل واحد يريد الله له النجاة . والآية الثالثة هى أن الخارقة لا تهدى القلوب الجاحدة . ذلك لمن يريد أن يتدبر تاريخ الدعوات ، وتصريف القلوب ، وعوامل الهدى والضلال .

ويمضى فى القصة بعد نجاة إبراهيم من النار . فلقد يئس من إيمان القوم الذين لم تلن قلوبهم للمعجزة الواضحة . فإذا هو يجبههم بحقيقة أمرهم ، قبل أن يعتزلهم جميعا :

« وقال : إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحيـاة الدنيا ، ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ، ويلعن بعضكم بعضا ، ومأواكم النار ، وما لـكم من ناصرين » ..

إنه يقول لهم : إنـكم اتخذتم الأوثان من دون الله ، لا اعتقادا واقتناعا بأحقية هـذه العبادة ؛ إنما يجامل بعضكم بعضا ، ويوافق بعضـكم بعضا ، على هذه العبادة ؛ ولا يريد الصاحب أن يترك عبادة صاحبه ــ حين يظهر الحق له ــ استبقاء لما بينكم من مودة على حساب الحق والعقيدة ! وإن هذا ليقع فى الجماعات التى لا تأخذ العقيدة مأخذ الجد ، فيسترضى الصاحب صاحبه على حساب العقيدة ؛ ويرى أمرها أهون من أن يخالف عليه صديقه ! وهى الجد كل الجد . الجد الذى لا يقبل تهاونا و لا استرخاء ولا استرضاء .

ثم يـكشف لهم عن صفحتهم فى الآخرة . فإذا المودة التى يخشون أن يمسوها بالخلاف على العقيدة ، والتى يبقون على عبادة الأوثان محافظة عليها .. إذا هى يوم القيامة عداء ولعن وانفصام :

« ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا » ..

يوم يتنكر التابعون للمتبوعين ، ويكفر الأولياء بالأولياء ، ويتهم كل فريق صاحبه أنه أضله ، ويلعن كل غوى صاحبه الذى أغواه !

ثم لا يجدى ذلك الكفر والتلاعن شيئا ، ولا يدفع عن أحد عذابا :

« ومأواكم النار وما لكم من ناصرين » ..

النار التى أرادوا أن يحرقوه بها ، فنصره الله منها ونجاه . فأما هم فلا نصرة لهم ولا نجاة !

وانتهت دعوة إبراهيم لقومه ، والمعجزة التى لاشك فيها . انتهت هذه وتلك بإيمان فرد واحد غير امرأته هو لوط . ابن أخيه فيما تذكر بعض الروايات . وهاجر معه من أور الكلدانيين فى العراق ، إلى ما وراء الأردن حيث استقر بهما المقام :

« فآمن له لوط ، وقال : إنى مهاجر إلى ربى ، إنه هو العزيز الحكيم » ..

ونقف أمام قولة لوط : « إنى مهاجر إلى ربى » .. لنرى فيم هاجر . إنه لم يهاجر للنجاة. ولم يهاجر إلى أرض أوكسب أو تجارة . إنما هاجر إلى ربه . هاجر متقربا له ملتجئا إلى حماه. هاجر إليه بقلبه وعقيدته قبل أن يهاجر بلحمه ودمه . هاجر إليه ليخلص له عبادته ويخلص له قلبه ويخلص له كيانه كله فى مهجره ، بعيدا عن موطن الكفر والضلال . بعد أن لم يبق رجاء فى أن يفيء القوم إلى الهدى والإيمان بحال .

وعوض الله إبراهيم عن وطنه وعن قومه وعن أهله ـ عوضه عن هذا كله ذرية تمضى فيها رسالة الله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . فكل الأنبياء وكل الدعوات بعده كانت فى ذريته . وهو عوض ضخم فى الدنيا وفى الآخرة :

« ووهبنا له إسحاق ويعقوب . وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب . وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين » .

وهو فيض من العطاء جزيل ، يتجلى فيه رضوان الله سبحانه على الرجل الذى يتمثل فيه الخلوص لله بكليته ، والذى أجمع الطغيان على حرقه بالنار ، فكان كل شيء من حوله بردا وسلاما ، وعطفا وإنعاما . جزاء وفاقا .

* * *

ثم تأتى قصة لوط عقب قصة إبراهيم ، بعد ماهاجر إلى ربه مع إبراهيم ، فنزلا بوادى الأردن ؛ ثم عاش لوط وحده فى إحدى القبائل على ضفاف البحر الميت أو بحيرة لوط كما سميت فيما بعد . وكانت تسكن مدينة سدوم . وصار لوط منهم بالصهر والمعيشة .

ثم حدث أن فشا فى القوم شذوذ عجيب ، يذكر القرآن أنه يقع لأول مرة فى تاريخ

البشرية . ذلك هو الميل الجنسى المنحرف إلى الذكور بدلا من الإناث اللاتى خلقهن الله للرجال ، لتتكون من الجنسين وحدات طبيعية منتجة تكفل امتداد الحياة بالنسل وفق الفطرة المطردة فى جميع الأحياء . إذ خلقها الله أزواجا : ذكرانا وإناثا . فلم يقع الشذوذ والانحراف إلى الجنس المماثل قبل قوم لوط هؤلاء :

« ولوطا إذ قال لقومه : إنكم لتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من أحد من العالمين . إنكم لتأتون الرجال ، وتقطعون السبيل ، وتأتون فى ناديكم المنكر . فما كان جواب قومه إلا أن قالوا : ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين . قال : رب انصرنى على القوم المفسدين » . .

ومن خطاب لوط لقومه يظهر أن الفساد قد استشرى فيهم بكل ألوانه . فهم يأتون الفاحشة الشاذة التى لم يسبقهم بها أحد من العالمين :

يأتون الرجال . وهى فاحشة شاذة قذرة تدل على انحراف الفطرة وفسادها من أعماقها . فالفطرة قد تفسد بتجاوز حد الاعتدال والطهارة مع المرأة ، فتكون هذه جريمة فاحشة ، ولكنها داخلة فى نطاق الفطرة ومنطقها . فأما ذلك الشذوذ الآخر فهو انخلاع من فطرة الأحياء جميعا . وفساد فى التركيب النفسى والتركيب العضوى سواء . فقد جعل الله لذة المباشرة الجنسية بين الزوجين متناسقة مع خط الحياة الأكبر ، وامتداده بالنسل الذى ينشأ عن هذه المباشرة . وجهز كيان كل من الزوجين بالاستعداد للالتذاذ بهذه المباشرة ، نفسيا وعضويا ، وفقا لذلك التناسق . فأما المباشرة الشاذة فلا هدف لها ، ولم يجهز الله الفطرة بالتذاذها تبعا لانعدام الهدف منها . فإذا وجد فيها أحد لذة فمعنى هذا أنه انسلخ نهائيا من خط الفطرة ، وعاد مسخا لا يرتبط بخط الحياة !

ويقطعون السبيل ، فينهبون المال ، ويروعون المارة ، ويعتدون على الرجال بالفاحشة كرها . وهى خطوة أبعد فى الفاحشة الأولى ، إلى جانب السلب والنهب والإفساد فى الأرض .

ويأتون فى ناديهم المنكر . يأتونه جهارا وفى شكل جماعى متفق عليه ، لا يخجل بعضهم من بعض . وهى درجة أبعد فى الفحش ، وفساد الفطرة ، والتبجح بالرذيلة إلى حد لا يرجى معه صلاح !

والقصة هنا مختصرة ، وظاهر أن لوطا أمرهم فى أول الأمر ونهاهم بالحسنى ؛ وأنهم أصروا على ماهم فيه ، فخوفهم عذاب الله ، وجبههم بشناعة جرائمهم الكبرى :

« فما كان جواب قومه إلا أن قالوا : ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين » ..

فهو التبجح فى وجه الإنذار ، والتحدى المصحوب بالتكذيب ، والشرود الذى لا تنتظر منه أوبة . وقد أعذر إليهم رسولهم فلم يبق إلا أن يتوجه إلى ربه طالبا نصره الأخير :

« قال : رب انصرنى على القوم المفسدين » . .

وهنا يسدل الستار على دعاء لوط ، ليرفع عن الاستجابة . وفى الطريق يلم الملائكة المكلفون بالتنفيذ بإبراهيم ، يبشرونه بولد صالح من زوجه التى كانت من قبل عقيما :

« ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا : إنا مهلكو أهل هذه القرية، إن أهلها كانوا ظالمين . قال : إن فيها لوطا . قالوا : نحن أعلم بمن فيها ، لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين » . .

وهذا المشهد . مشهد الملائكة مع إبراهيم . مختصر فى هذا الوضع لأنه ليس مقصودا ؛ فقد سبق فى قصة إبراهيم أن الله وهب له إسحاق ويعقوب ؛ وولادة إسحاق هى موضوع البشرى ، ومن ثم لم يفصل قصتها هنا لأن الغرض هو إتمام قصة لوط . فذكر أن مرور الملائكة بإبراهيم كان للبشرى . ثم أخبروه بمهمتهم الأولى : « إنا مهلكو أهل هذه القرية . إن أهلها كانوا ظالمين » . .

وأدركت إبراهيم رقته ورأفته ، فراح يذكر الملائكة أن فى هذه القرية لوطا ؛ وهو صالح وليس بظالم !

وأجابه الرسل بما يطمئنه من ناحيته ، ويكشف له عن معرفتهم بمهمتهم وأنهم أولى بهذه المعرفة !

« قالوا : نحن أعلم بمن فيها ؛ لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين » ..

وقد كان هواها مع القوم ، تقر جرائمهم وانحرافهم ، وهو أمر عجيب .

وينتقل إلى مشهد ثالث . مشهد لوط وقد جاء إليه الملائكة فى هيئة فتية صباح ملاح ؛ وهو يعلم شنشنة قومه ، وما ينتظر ضيوفه هؤلاء منهم من سوء لا يملك له دفعا . فضاق صدره وساءه حضورهم إليه ، فى هذا الظرف العصيب :

« ولما أن جاءت رسلنا لوطا سىء بهم وضاق بهم ذرعا » . .

ويختصر هنا هجوم القوم على الضيوف ، ومحاورة لوط لهم ، وهم فى سعار الشذوذ

المريض . . ويمضى إلى النهاية الأخيرة . إذ يكشف له الرسل عن حقيقتهم ، ويخبرونه بمهمتهم ، وهو فى هذا الكرب وذلك الضيق :

« وقالوا : لا تخف ولا تحزن . إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين . إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون » . .

وترسم هذه الآية مشهد التدمير الذى أصاب القرية وأهلها جميعا — إلا لوطا وأهله المؤمنين — وقد كان هذا التدمير بأمطار وأحجار ملوثة بالطين . ويغلب أنها ظاهرة بركانية قلبت المدينة وابتلعتها ؛ وأمطرت عليها هذا المطر الذى يصاحب البراكين .

وما تزال آثار هذا التدمير باقية تحدث عن آيات الله لمن يعقلها ويتدبرها من القرون :

« ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون » . .

وكان هذا هو المصير الطبيعى لهذه الشجرة الخبيثة التى فسدت وأنتنت ، فلم تعد صالحة للإثمار ولا للحياة . ولم تعد تصلح إلا للاجتثاث والتحطيم .

* * *

ثم إشارة إلى قصة شعيب ومدين :

« وإلى مدين أخاهم شعيبا ، فقال : ياقوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . فكذبوه فأخذتهم الرجفة ، فأصبحوا فى دارهم جاثمين » ..

وهى إشارة تبين وحدة الدعوة ، ولباب العقيدة : « اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ».. وعبادة الله الواحد هى قاعدة العقيدة . ورجاء اليوم الآخر كفيل بتحويلهم عما كانوا يرجونه فى هذه الحياة الدنيا من الكسب المادى الحرام بالتطفيف فى الكيل والميزان ، وغصب المارين بطريقهم للتجارة ، وبخس الناس أشياءهم ، والإفساد فى الأرض ، والاستطالة على الخلق .

وفى اختصار يذكر انتهاء أمرهم إلى تكذيب رسولهم ؛ وأخذهم بالهلاك والتدمير ، على سنة الله فى أخذ المكذبين .

« فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين » ..

وقد تقدم بيان الرجفة التى زلزلت عليهم بلادهم ورجتها بعد الصيحة المدوية التى أسقطت

قلوبهم وتركتهم مصعوقين حيث كانوا فى دارهم لا يتحركون . فأصبحوا فيها جاثمين . جزاء ما كانوا يروعون الناس وهم يخرجون عليهم مغيرين صائحين !

* * *

وإشارة كذلك إلى مصرع عاد وثمود :

« وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم ؛ وزين لهم الشيطان أعمالهم ، فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين » ..

وعاد كانت تسكن بالأحقاف فى جنوب الجزيرة بالقرب من حضرموت ، وثمود كانت تسكن بالحجر فى شمال الجزيرة بالقرب من وادى القرى . وقد هلكت عاد بريح صرصر عاتية ، وهلكت ثمود بالصيحة المزلزلة . وبقيت مساكنها معروفة للعرب يمرون عليها فى رحلتى الشتاء والصيف ، ويشهدون آثار التدمير ، بعد العز والتمكين .

وهذه الإشارة المجملة تكشف عن سر ضلالهم ، وهو سر ضلال الآخرين .

« وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين » ..

فقد كانت لهم عقول ، وكانت أمامهم دلائل الهدى ؛ ولكن الشيطان استهواهم وزين لهم أعمالهم . وأتاهم من هذه الثغرة المكشوفة ، وهى غرورهم بأنفسهم ، وإعجابهم بما يأتونه من الأعمال ، وانخداعهم بما هم فيه من قوة ومال ومتاع . « فصدهم عن السبيل » سبيل الهدى الواحد المؤدى إلى الإيمان . وضيع عليهم الفرصة « وكانوا مستبصرين » يملكون التبصر ، وفيهم مدارك ولهم عقول .

* * *

وإشارة إلى قارون وفرعون وهامان . « ولقد جاءهم موسى بالبينات ، فاستكبروا فى الأرض ، وما كانوا سابقين » ..

وقارون كان من قوم موسى فبغى عليهم بثروته وعلمه ، ولم يستمع نصح الناصحين بالإحسان والاعتدال والتواضع وعدم البغى والفساد . وفرعون كان طاغية غشوما ، يرتكب أبشع الجرائم وأغلظها ، ويسخر الناس ويجعلهم شيعا ، ويقتل ذكور بنى إسرائيل ويستحيى نساءهم عتوا وظلما . وهامان كان وزيره المدبر لمكائده ، المعين له على ظلمه وبطشه .

« ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض » ..

فلم يعصمهم الثراء والقوة والدهاء . لم تعصمهم من أخذ الله ، ولم تجعلهم ناجين ولا مفلتين من عذاب الله ، بل أدركهم وأخذهم كما سيجيء .

« وما كانوا سابقين » ..

* * *

هؤلاء الذين ملكوا القوة والمال وأسباب البقاء والغلبة ، قد أخذهم الله جميعا . بعد ما فتنوا الناس وآذوهم طويلا :

« فكلا أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا . وما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

فعاد أخذهم حاصب وهو الريح الصرصر التى تتطاير معها حصباء الأرض فتضربهم وتقتلهم ، وثمود أخذتهم الصيحة . وقارون خسف به وبداره الأرض ، وفرعون وهامان غرقا فى اليم وذهبوا جميعا مأخوذين بظلمهم . « وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » ..

* * *

والآن . وعلى مصارع العتاة البغاة من الكفرة والظلمة والفسقة على مدار القرون . . والآن . وبعد الحديث فى مطالع السورة عن الفتنة والابتلاء والإغراء . . الآن يضرب المثل لحقيقة القوى المتصارعة فى هذا المجال . . إن هنالك قوة واحدة هى قوة الله . وما عداها من قوة الخلق فهو هزيل واهن ، من تعلق به أو احتمى ، فهو كالعنكبوت الضعيفة تحتمى ببيت من خيوط واهية . فهى وما تحتمى به سواء :

« مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا ، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون . إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شىء وهو العزيز الحكيم . وتلك الأمثال نضربها للناس ، وما يعقلها إلا العالمون » . .

إنه تصوير عجيب صادق لحقيقة القوى فى هذا الوجود . الحقيقة التى يغفل عنها الناس أحيانا ، فيسوء تقديرهم لجميع القيم ، ويفسد تصورهم لجميع الارتباطات ، وتختل فى أيديهم جميع الموازين . ولا يعرفون إلى أين يتوجهون . ماذا يأخذون وماذا يدعون ؟

وعندئذ تخدعهم قوة الحكم والسلطان يحسبونها القوة القادرة التى تعمل فى هذه الأرض ،

فيتوجهون إليها بمخاوفهم ورغائبهم ، ويخشونها ويفزعون منها ، ويترضونها ليكفوا عن أنفسهم أذاها ، أو يضمنوا لأنفسهم حماها !

وتخدعهم قوة المال ، يحسبونها القوة المسيطرة على أقدار الناس وأقدار الحياة . ويتقدمون إليها فى رغب وفى رهب ؛ ويسعون للحصول عليها ليستطيلوا بها ويتسلطوا على الرقاب كما يحسبون !

وتخدعهم قوة العلم يحسبونها أصل القوة وأصل المال ، وأصل سائر القوى التى يصول بها من يملكها ويجول ، ويتقدمون إليها خاشعين كأنهم عباد فى المحاريب !

وتخدعهم هذه القوى الظاهرة . تخدعهم فى أيدى الأفراد وفى أيدى الجماعات وفى أيدى الدول ، فيدورون حولها ، ويتهافتون عليها ، كما يدور الفراش على المصباح ، وكما يتهافت الفراش على النار !

وينسون القوة الوحيدة التى تخلق سائر القوى الصغيرة ، وتملكها ، وتمنحها ، وتوجهها ، وتسخرها كما تريد ، حيثما تريد .

وينسون أن الالتجاء إلى تلك القوى سواء كانت فى أيدى الأفراد ، أو الجماعات ، أو الدول . كالتجاء العنكبوت إلى بيت العنكبوت ... حشرة ضعيفة رخوة واهنة لاحماية لها من من تكوينها الرخو ، ولا وقاية لها من بيتها الواهن .

وليس هنالك إلا حماية الله ، وإلا حماه ، وإلا ركنه القوى الركين .

هذه الحقيقة الضخمة هى التى عنى القرآن بتقريرها فى نفوس الفئة المؤمنة ، فكانت بها أقوى من جميع القوى التى وقفت فى طريقها ؛ وداست بها على كبرياء الجبابرة فى الأرض ودكت بها المعاقل والحصون .

لقد استقرت هذه الحقيقة الضخمة فى كل نفس ، وعمرت كل قلب ، واختلطت بالدم ، وجرت معه فى العروق ، ولم تعد كلمة تقال باللسان ، ولا قضية تحتاج إلى جدل . بل بديهة مستقرة فى النفس ، لا يجول غيرها فى حس ولا خيال .

قوة الله وحدها هى القوة . وولاية الله وحدها هى الولاية . وما عداها فهو واهن ضئيل هزيل ؛ مهما علا واستطال ، ومهما تجبر وطغى ، ومهما ملك من وسائل البطش والطغيان والتنكيل .

إنها العنكبوت : وماتملك من القوى ليست سوى خيوط العنكبوت : « وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لوكانوا يعلمون » .

وإن أصحاب الدعوات الذين يتعرضون للفتنة والأذى ، وللإغراء والإغواء . لجديرون أن يقفوا أمام هذه الحقيقة الضخمة ولاينسوها لحظة ، وهم يواجهون القوى المختلفة . هذه تضربهم وتحاول أن تسحقهم. وهذه تستهويهم وتحاول أن تشتريهم .. وكلها خيوط العنكبوت فى حساب الله، وفى حساب العقيدة حين تصح العقيدة، وحين تعرف حقيقة القوى وتحسن التقويم والتقدير .

« إن الله يعلم مايدعون من دونه من شىء » . .

إنهم يستعينون بأولياء يتخذونهم من دون الله والله يعلم حقيقة هؤلاء الأولياء . وهى الحقيقة التى صورت فى المثل السابق . . عنكبوت تحتمى بخيوط العنكبوت !

« وهو العزيز الحكيم » . .

هو وحده العزيز القادر القاهر الحكيم المدبر لهذا الوجود .

« وتلك الأمثال نضربها للناس ومايعقلها إلا العالمون » . .

فلقد اتخذها جماعة من المشركين المغلق القلوب والعقول مادة للسخرية والتهكم . وقالوا : إن رب محمد يتحدث عن الذباب والعنكبوت . ولم يهز مشاعرهم هذا التصوير العجيب لأنهم لا يعقلون ولا يعلمون : « ومايعقلها إلا العالمون » ..

* * *

ثم يربط تلك الحقيقة الضخمة التى قدمها بالحق الكبير فى تصميم هذا الكون كله على طريقة القرآن فى ربط كل حقيقة بذلك الحق الكبير :

« خلق الله السماوات والأرض بالحق . إن فى ذلك لآية للمؤمنين » . .

وهكذا تجىء هذه الآية عقب قصص الأنبياء ، وعقب المثل المصور لحقيقة القوى فى الوجود ، متناسقة معها مرتبطة بها ، بتلك الصلة الملحوظة . صلة الحقائق المتناثرة كلها بالحق الكامن فى خلق السماوات والأرض ؛ والذى قامت به السماوات والأرض ، فى ذلك النظام الدقيق الذى لايتخلف ولايبطىء ولايختلف ولايصدم بعضه بعضا، لأنه حق متناسق لاعوج فيه !

« إن فى ذلك لآية للمؤمنين » ..

الذين تتفتح قلوبهم لآيات الله الكونية المبثوثة فى تضاعيف هذا الكون وحناياه ، المشهودة

فى تنسيقه وتنظيمه ، المنثورة فى جوانبه حيثما امتدت الأبصار . والمؤمنون هم الذين يدركونها ، لأنهم مفتوحو البصائر والمشاعر للتلقى والإدراك .

* * *

وفى نهاية الشوط يربط الكتاب الذى أنزل على محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ ويربط الصلاة وذكر الله ، بالحق الذى فى السماوات والأرض ، وبسلسة الدعوة إلى الله من لدن نوح عليه السلام :

« اتل ماأوحى إليك من الكتاب ، وأقم الصلاة ، إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر والله يعلم ماتصنعون » ..

اتل ما أوحى إليك من الكتاب فهو وسيلتك للدعوة ، والآية الربانية المصاحبة لها ، والحق المرتبط بالحق الكامن فى خلق السماوات والأرض .

وأقم الصلاة إن الصلاة ــ حين تقام ــ تنهى عن الفحشاء والمنكر . فهى اتصال بالله يخجل صاحبه ويستحيي أن يصطحب معه كبائر الذنوب وفواحشها ليلقى الله بها ، وهى تطهر وتجرد لا يتسق معهما دنس الفحشاء والمنكر وثقلتهما. « من صلى صلاة لم تنهه عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بها من الله إلا بعدا »(١) . وما أقام الصلاة كما هى إنما أداها أداء ولم يقمها . . وفرق كبير بينهما . . فهى حين تقام ذكر لله . « وذكر الله أكبر » . أكبر إطلاقا . أكبر من كل اندفاع ومن كل نزوع . وأكبر من كل تعبد وخشوع .

« والله يعلم ما تصنعون » . .

فلا يخفى عليه شىء ، ولا يلتبس عليه أمر . وأنتم إليه راجعون . فمجازيكم بما تصنعون . .

تم الجزء العشرون ، ويليه الجزء الواحد والعشرون
مبدوءاً بقوله تعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب »

---

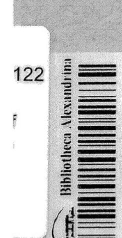
(١) رواه ابن جرير قال : حدثنا على حدثنا إسماعيل بن مسلم عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وذكر الحديث . .

كتب للمؤلف

١ ـ فى ظلال القرآن	(فى ثلاثين جزءاً)	دار إحياء الكتب العربية
٢ ـ العدالة الاجتماعية فى الإسلام	(طبعة رابعة)	» » » »
٣ ـ معركة الإسلام والرأسمالية	(» ثانية)	دار الإخوان للطباعة والصحافة
٤ ـ السلام العالمى والإسلام	(» ثانية)	مكتبة وهبه شارع إبراهيم بعابدين
٥ ـ دراسات إسلامية	(» أولى)	مكتبة لجنة الشباب المسلم
٦ ـ التصوير الفنى فى القرآن	(» ثالثة)	دار المعارف
٧ ـ مشاهد القيامة فى القرآن	(» ثانية)	» »
٨ ـ النقد الأدبى :أصوله ومناهجه	(» ثانية)	دار الفكر العربى
٩ ـ أشواك	(» أولى)	دار سعد مصر بالفجالة
١٠ ـ طفل من القرية	(» »)	لجنة النشر للجامعيين
١١ ـ الأطياف الأربعة	(بالاشتراك مع إخوته)	» » »
١٢ ـ القصص الدينى	(بالاشتراك مع الأستاذ السحار)	» » »
١٣ ـ الشاطىء المجهول	(شعر)	. . . نفد
١٤ ـ كتب وشخصيات	(نقد)	. . . »
١٥ ـ مهمة الشاعر فى الحياة	(»)	. . . »
١٦ ـ نقد كتاب مستقبل الثقافة	(»)	. . . »
١٧ ـ المدينة المسحورة	(قصة)	. . . »

الكتب التالية

(١) نحو مجتمع إسلامى
(٢) أمريكا التى رأيت
(٣) حلم الفجر (شعر)
(٤) قافلة الرقيق (شعر)


122
Bibliotheca Alexandrina
0593920